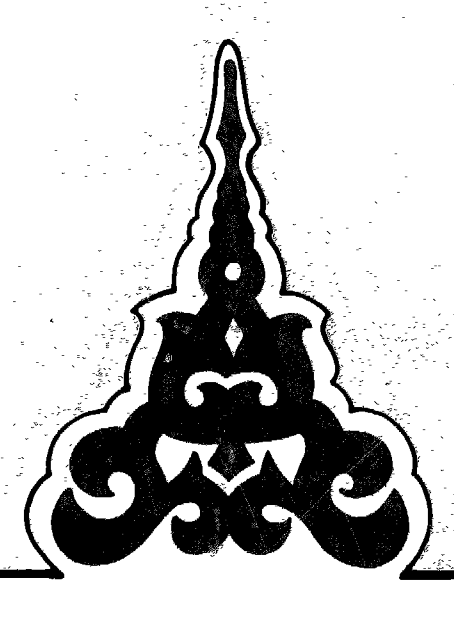
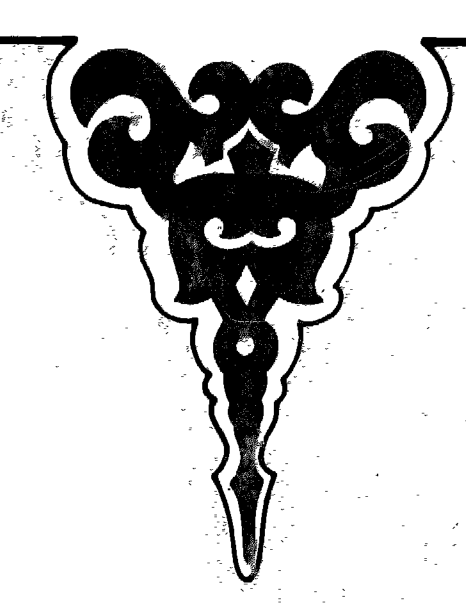


تاريخ العرب الحديث



تأليف
محمود
عكاشة



الطبعة الأولى
١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

دار الأمل للنشر والتوزيع
ص. ب ٤٦٩ - تلفون ٢٧٦١٧٤



تاريخ العرب الحديث

تأليف

د. جميل بيضون

د. شحادة الناطور

الأستاذ علي عكاشة

دار الأمل للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى

١٤١٢هـ ~ ١٩٩١م

٩٠ع
شحا شحادة الناطور

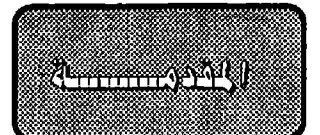
تاريخ العرب الحديث/ شحادة الناطور، جميل بيضون، علي عكاشة .ـ إربد: دار الأمل، ١٩٩٢ .
(١٧٠) ص
ر.أ (٦١٩/١١/١٩٩١)
١ . العرب ـ تاريخ أ. العنوان
(تمت الفهرسة بمعرفة المكتبة الوطنية)

الإهــداء

إلى من يصنعون التاريخ
لأمتنا العربية
المجيدة

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم



المقدمــــة

الحمد لله على كل حال ، وامام كل حاجة وسؤال ، فلا علم لنا إلا ماعلمتنا ، فهو الذي وهبنا المقدرة على العمل لنصرة هذه الأمة والذّب عنها .

وبعد :

نضع بين أيدي أبنائنا الطلاب واخواننا المعلمين كتاب تاريخ الامة العربية في العهد العثمانــــي ، وهو يبحث في احوال الوطن العربي منذ القرن السادس عشر حتى نهاية القرن التاسع عشر .

لقد شمل الكتاب دخول الوطن العربي تحت الحكم العثماني ، والأطماع الأوروبية فيه وما ترتب على ذلك من استعمار له ، وحركة الاصلاح واليقظة في الوطن العربي .

ويهدف الكتاب إلى تزويد الطلاب بالحقائق والمعلومات التاريخية ، في الفترة التاريخية المحددة ، من أجل تنمية ، البحث والتنقيب وتنمية الاتجاهات والمهارات لتمييز الحقائق التاريخية ، التي تحصنهم من التعليلات الخاطئة ، وايجاد المقدرة على التحليل والتنبؤ بالمستقبل .

ومهما بذلنا ، فسيبقى الكتاب ناقصا لان الكمال لله وحده ، وأملنا أن يساعد اخواننا الطلاب في سد ما به من نقص أثناء دراستهم . كما نأمل ان يكمل إخواننا المعلمين مايشعرون به من نقص ، وأن يزودونا بملحوظاتهم القيمة لنأخذ بها في المستقبل .

والله نسأل أن يأخذ بأيدينا إنه نعم المولى ، وهو الهادي لكل صواب .

والله الموفــق

المؤلفون

"١٤١١ - ١٩٩١"



الأهداف العامة للكتاب

- ان يتزود الطلاب بالحقائق والمعلومات التاريخية من أجل تنمية الشخصية السوية ، وتنمية الاتجاهات والمهارات التي تسهم في تحقيق أهداف التربية الاجتماعية .
- أن يفهم الطلاب حاضر الأمة العربية لتحديد معالم مستقبلها .
- ابراز الروابط المتينة بين الشعوب العربية والإسلامية .
- تنمية الشعور عند الطلاب بالمسؤولية تجاه الأمة ، والوطن ، والانسانية
- أن يكتشف الدارسون التعليلات الخاطئة والمغرضة في التاريخ .
- ايجاد القدرة لدى الطلاب على المقارنة والتمييز بين الحقائق التاريخية ووجهات النظر .
- أن يتوصل الطلاب إلى استخلاص النتائج والمبادىء العامة والإفادة منها في فهم الحاضر لفهم المستقبل .
- أن يتعود الطلاب على تحليل النصوص التاريخية ، واستخلاص الحقائق والتمييز بين غثها وسمينها .
- ايجاد روح البحث والتنقيب للتوصل الى الحقيقة .
- توفر القدرة عند الطلاب على استخدام المصادر والمراجع التاريخية من أجل البحث العلمي الدقيق .



الفصل الاول

*احوال الوطن العربي

*نشأة الدولة العثمانية وتوسعها

«منذ القرن الثالث عشر وحتى القرن السادس عشر»



الفصل الاول

المدخل
احوال الوطن العربي
«السياسية والاقتصادية والاجتماعية قبيل الحكم العثماني»

تمهيد: تحطمت وحدة الدولة العربية الاسلامية" الدولة العباسية" أثر سقوط بغداد حاضرة الاسلام وعاصمة الدولة على يد"هولاكو" زعيم التتار أو المغول سنة(٦٥٦هـ-١٢٥٨م) بعد ان تم قتل الخليفة العباسي المستعصم وأولاده.

وبسقوط الدولة العباسية، اختل نظام الدولة الوحدوي وحل مكانه نظام التجزئة، وأصبح بمقدور كل أمير قوي متغلب على جهة اسلامية ان يستجيز لنفسة لقب الخلافة، واصاب الاختلال والانهيار الانظمة كافة من سياسية، واجتماعية، واقتصادية، بحيث خيل للمسلمين أن العالم على وشك الانهيار، وصاروا يؤولون كل ظاهرة كتعبير عن سخط الله واتخذوا أدلة مما يحدث في الاقطار[1].

أحوال الوطـن العربي
أ- الاحوال السياسية
العراق

لقد كان سقوط بغداد سقوط رمز تجمع المسلمين واستيلاء المغول وحكمهم للأجزاء الشرقية للدولة كذلك، ولكن حكم المغول الذي استمر حوالي القرنين (١٢٥٨- ١٤٠١) قد تنازع في آخر عهده مع التركمان، حيث تمكن أوزون حسن من حكم ايران، والعراق ، ولكن دولتـــــه أصيبت بالضعف، فاستولى عليها الصفويون في القرن الخامس عشر[2].

---

(١) انظر كتابنا: تاريخ المشرق الاسلامي: قيام الدويلات الاسلامية، السامانية، والغزنويه، والسلاجقة، والأتابكه...الخ. وانظر كتابنا :تاريخ المغول والمماليك،ص(٢٠، ٣٢).

(٢)) عمر بن عبد العزيز: تاريخ المشرق العربي، ص (١٧).

طمع الصفويون في العراق، فقاموا باحتلال جنوبه بما في ذلك بغداد، وكربلاء والنجف لاحتوائها على العتبات المقدسة عند الشيعة الصفويين، هذا فضلاً عن موقعها التجاري الهام على الخليج العربي، ووفرة الثروة الاقتصادية. وقد تم هذا الاحتلال من قبل الشاه" اسماعيل الصفوي" عام (١٥٠٨)م وهكذا ضمت الدولة الصفوية العراق العربي، وديار بكر، بجانب فارس وخرسان[١].

مصر والشام والجزيرة العربية

تمكن المماليك من هزيمة المغول سنة (٦٥٨هـ - ١٢٦٠م) في معركة «عين جالوت»، كما كان لهم الفضل في تطهير بلاد الشام من بقايا الصليبين عام(٦٥٨هـ-١٢٦٠)[٢]. ولعل من أبرز ما قام به المماليك فضلاً عما تقدم ، إعادتهم للخلافة العباسية وترسيخ المذهب السني في مصر والشام وإقامة العديد من المعالم الحضارية في بلادنا، إلا أنهم ركزوا على جمع السلطة بأيديهم، مما جعلهم يسيطرون على المراكز السياسية ، العسكرية ، والادارية في البلاد، وكان السلطان يوزع الولايات بين أتباعه وقواده مما جعل البلاد تتعرض إلى كثير من المؤامرات[٤]، وهذا أدى إلى تقوقعهم وبالتالي إلى ضعفهم الذي برز واضحاً في عهد السلطان "قايتباي وقنصوه الغوري" وبالتالي نهايه حكمهم عام(٩٢٣هـ-١٥١٧م).

وضاق تجار اوروبا بالمماليك الذين كانوا يستغلون طريق البحر الأحمر بفرض الضرائب المرتفعه على واردات البلاد الاسيوية وبخاصة التوابل التي كانت تستورد من بلدانالشرق الأقصى، مما دفع التجار الأوربيون الى البحث عن طريق جديدة، فكان أن نجح "بارثلميو دياز" في كشف رأس الرجاء الصالح سنة (٨٩٢هـ-١٤٨٧م)، وتلاه "فاسكو دي غاما" في الوصول إلى الهند عن طريق الطواف حول افريقيا سنة (٩٠٤هـ- ١٤٩٨م) ، فحقق البرتغاليون بذلك نصراً جديداً بتوفير البهارات للاوربيين بثمن يبلغ ربع الثمن الذي كانت تباع به في مصر[٣]. وتطلع البرتغاليون بعد اكتشافهم السابق إلى السيطرة على الخليج العربي

---

(١) عمر بن عبدالعزيز محاضرات في تاريخ الشعوب الاسلامية، ص(٢).

(٢) انظر كتابنا تاريخ المغول والمماليك، ص (٩٠) مابعده.

(٣) انظر كتابنا تاريخ المغول والمماليك: ص(١٢٧، ١٢٨)عمر بن العزيز: دراسات في تاريخ العرب الحديث:ص(٢٣).

والبحر الأحمر، فاحتلوا جزيرة سوقطرة ومسقط، وصحار، واقاموا لهم مراكز في الكويت، والبصرة هذا فضلاً عن مدينة جدة سنة(٩١٩هـ-١٥١٣م)[١].

المغرب العربي

انقسمت الاندلس إلى عدد من الامارات المتصارعة مما ادى إلى زوال الحكم العربي الاسلامي في اسبانيا سنة (١٤٩٢) م بعد حكم استمر ثمانية قرون (٩٤ – ٨٩٦هـ) – (٧١٢ – ١٤٨٤م)، وانتقل النزاع إلى المغرب العربي بظهور الدولة الحفصية في طرابلس، وتونس (١٢٢٨هـ – ١٥٥٤م)،مما أدى الى سيطرة الاسبان على طرابلس وتوزعت الجزائر بين بني زيان في تلمسان وبني حفص، وسيطر عليها بنو زيان حتى سنة (١٥٠٥م) على المرسى الكبير ثم احتلها الاسبان ثم وهران واخيراً بجاية سنة (١٥١٠) وحكم "بنومرين" مراكش حتى عام (١٤٦٥م) ثم تبعهم "بنو وطاس" عام (١٥١٠م) ثم الاشراف السعديين.

أما طرابلس فقد كان يحكمها في القرن السادس عشر(١٥٣٥م) فرسان القديس يوحنا وهم بقايا الصليبيين الذين طردوا من فلسطين.

وطبقاً لما تقدم يتبين لنا أن وحدة الوطن العربي كانت قد تحطمت ، وتفتت بفعل التجزئة والانقسام السياسي، مما ادى الى نهاية سيادة الامة العربية، وهذا ادى بدوره الى الضعف الذي شجع أمماً اخرى أن تهدده بين الحين والآخر، من الشرق والغرب، مما مهد الطريق للعثمانين المسلمين لاحتلاله وانقاذه من براثن الغرب، واستطاع العثمانيون المسلمون وبقوتهم الفتية من صد الغزو الصليبي الجديد الوافد من الغرب[٢].

ب- الاحوال الاقتصادية

ساد الاقطاع[٣] كنظام اقتصادي في العهد المملوكي وكان المماليك قد ورثوه عن الأيوبيين، إلا أنهم لم يجعلوه وراثيا، بل كان السلطان يقطع مملوكه أرضا ويقوم هذا بتحصيل

(١) عبد الكريم غرايبة: مقدمة في تاريخ العرب الحديث، جـ١، ص(١٣، ١٥)جامعة دمشق سنة (١٩٦٠)

(٢) عمر بن عبد العزيز:دراسات في تاريخ العرب الحديث والمعاصر ص (١٨، ١٩)بيروت: دار النهضة العربيةسنة(١٩٧٥).

(٣) انظر كتابنا تاريخ المغول والمماليك: ص(١٥٧).

الغلة او المال بالاضافة إلى انتاجه "المكوس". وقد كان المماليك يحرصون على ضمان محصول اساسي ليعتمدوا عليه في تمـــــوين الجيش وتوفير الأموال لهم وبذلك تقاسم السلطان وامراءه واجناده خيرات البلاد الاقطاعية وانتاج الأرض وعائدات الضرائب والمكوس . وشغل امراء المماليك بنزاعاتهم فانصرفوا عن شق الترع والمصارف وبناء الجسور والقناطر[1] ، وقد ادى هذا الى ظلم الفلاحين ، وانعكس على الزراعة فتدهورت احوالها، وقل انتاجها، كما عانى الفلاحون من انعدام الامن والسلام وانتشار الأمراض، وبسبب عدم توفر المشاريع المائية والاعتماد على سقوط المطر المتذبذب .

ازدهرت الصناعة في البلاد، وكان الصناع يبيعون مصنوعاتهم في اسواقهم المحلية التي تنتشر في المدن؛ وتكثر في المناسبات وبخاصة في موسم الحج، وكانت الصناعة تتفاعل مع النظام التجاري باستيراد المواد الخام ثم بالتسويق في الداخل والخارج[2].

وتأثرت الصناعة في (العهد المملوكي) بتغير الطرق التجارية، فبعد أن كانت الطرق تنتهي بمصر ومنها إلى اوروبا أصبحت الطرق تمر حول رأس الرجاء الصالح في افريقيا إلى اوروبا لذلك شهدت الصناعات الحريرية والكتانية والقطنية والصوفية وصناعة الأواني النحاسية، وصناعة الورق، والسكر وغيرها تأخراً وهذا أمر طبيعي بسبب توقف التصدير فأخذت الصناعات تعتمد على الاسواق والاستهلاك المحلي[3] .

وهكذا اصبحت الصناعة محلية محصورة ببعض الأسر، يتورثها الابناء عن الآباء، والجدير بالذكر أنه كان لكل حرفة شيخ هو بمثابة رئيس لهذه الحرفة[4]، يجمعهم ويتبنى مشاكلهم يدافع عن حقوقهم.

وانعكس التمزق السياسي والتدهور الزراعي والصناعي في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي على التجارة مما ادى الى تأخرها، فبعد ان كانت الطرق التجارية[5] تمر بمصر، وبلاد

---

(١) جلال يحيى: العالم العربي الحديث، ص(١٨) القاهرة دار المعارف سنة(١٩٨٥).

(٢) المرجع نفسه ، ص(٢٠). المرجع نفسه ، ص(٢٠).

(٣) انظر كتابنا تاريخ المغول والمماليك، ص(١٢٨).

(٤) انظر كتابنا تاريخ المغول والمماليك، ص(١٢٨).

(٥) انظر كتابنا: المغول والمماليك، ص (١٤٤).

الشام، حاملة معها المنتوجات المحلية المصرية بالاضافة إلى التوابل والحرير المستورد، قام الأوروبيون (البرتغال باكتشاف رأس الرجاء الصالح والوصول إلى الهند) مما أوقع كارثة بالتجارة العربية في مصر وبلاد الشام، ولم يكتف البرتغاليون بذلك بل اخذوا يهاجمون الموانئ العربية، والسفن العربية، وقد بدا هذا واضحا عندما انتصر الاسطول البرتغالي على الاسطول المملوكي في معركة "ديو" سنة(١٥٠٩م).

وهكذا تأخرت التجارة، فعم الفقر وزاد، وأثقلت كواهل الأمة بالمصائب الاقتصادية المتمثلة بضعف وتردي احوال الزراعة، والصناعة، والتجارة، مما أدى إلى تمرد الشعب على السلطة فهاجم الطواحين والمخابز للاستيلاء على الطحين والخبز[١].

جـ- الأحوال الاجتماعية

اضطربت الحياة الاجتماعية في العالم العربي اثر الغزو المغولي لعاصمة الخلافة الاسلامية «بغداد» فانتشر الجوع والفقر في البلاد، وإذا كان المماليك قد وضعوا حداً لتقدم المغول التتار من الناحية العسكرية، فإنهم قد عاشوا في عزلة اجتماعية بسبب استئثارهم بالمناصب القيادية العسكرية، فقاموا بانشاء مجتمع اقطاعي تابع للسلطان، همّهُ في الدرجة الاولى جمع اكبر قسم من الاموال دون التفاعل مع المجتمع المحلي ، وهذا ابعدهم عن المشاركة الفعلية مع الجماهير مما جعل المجتمع يشعر بالظلم الواقع عليه.

وبدت ظواهر التأخر الاجتماعي واضحة بانتشار الفقر والجوع عندما تحولت الطرق التجارية عن المشرق مما ادى الى تدهور الحياة الاقتصادية من زراعة ، وصناعة ، وتجارة.

مما أثر على الحياة الاجتماعية والثقافية وعلى الرغم من ذلك فإننا نرى التضامن والتعاضد في المجتمع عند ظهور الغزو الخارجي، فنرى ارتفاع شعارات الجهاد لمواجهة هذا الغزو، وتمثل ذلك عند الغزو الاسباني والبرتغالي بعد طرد العرب من اسبانيا.

ومما هو جدير بالذكر أن ظاهرة التصوف والاهتمام بأمور الدين قد بقيت مهمة في المجتمع بسبب سيادة المذهب السني في البلاد وتمتع العلماء بمكانة مهمة لتوليهم أمور القضاء

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور، جـ٥،ص (٢٧).

والافتاء علماً بان أمور الاجتهاد في الدين قد توقفت، فاعتمد العلماء على النقل، والاقتباس، والشرح لمتن قديم، فتدهور تبعا لذلك المجتمع[1].

وخلاصة القول أن العالم العربي قد شهد تأخراً من الناحية الاجتماعية وهذه نتيجة حتمية تبعا للتمزق السياسي، والسيطرة الناتجة عن عزلة الحكام في المجتمع، ثم تأخر الحياة الاقتصادية بسبب تكريس الحكام جهدهم لامتصاص خيرات الشعب لمصالحهم، وتغير الطرق التجارية عن المشرق الذي سارع في ذلك التأخر.

(١) عمر بن عبد العزيز:محاضرات في تاريخ الشعوب الاسلامية ص(٣) بيروت: مكتبه كريدية اخوان سنة (١٩٧٦).

نشأة الدولة العثمانية وتوسعها

« منذ القرن الثالث عشر حتى القرن السادس عشر »

تمهيد: تثير نشأة الدولة العثمانية الكثير من الجدل والنقاش بين المؤرخين المعاصرين ويعود ذلك لفقدان المصادر الأولية للفترة الاولى من نشأتها، وكثرة الأساطير والخرافات التي علقت بها.

والملاحظ أن دراسة الدولة العثمانية على جانب كبير من الاهمية، لإننا وإياهم فصلان في كتاب واحد في تاريخ العرب والاسلام، فالعثمانيون يحتلون مركزاً فريداً في تاريخ العرب لا تحتله دولة أخرى من التاريخ لتدخلهم في حماية العالم العربي[1] بعد أن عجز المماليك عن ذلك امام البرتغاليين، والصفويين، والاسبان، مما جعل العرب وبخاصة في بلاد الشام ينظرون اليهم كمنقذين لدفعهم الخطر الأوروبي، مما جعل البلاد تعيش عهد سلام حتى آخر القرن الثامن عشر، كما أن بسط العثمانين سلطتهم على العراق حماهم من المذهب الشيعي[2].

ودفع العرب ثمن الاستقرار غير الطبيعي فأبعدت الاكثرية عن مجرى الحوادث مما دفعهم إلى تقديس الماضي واعتبار إنتاجه في غاية الكمال، وكان اعتكاف العرب في محراب الماضي تهرباً من مواجهتهم تحدي الطبيعة، ثم تسخيرها لمصالحهم[3].

كما واجه العرب والاتراك الضغط الغربي خلال القرنين الماضيين ، ولم يستطع هذا المجتمع المطمئن أن يقف في وجة الغرب المتحفز الذي تدعمه طاقة هائلة نتيجة الثورتين الصناعية والعلمية، مما شقق جدار الحماية الذي بناه العثمانيون، وانكشف العالم العربي للضغط الغربي المباشر، فتعرض الى كثير من الصدمات والنكبات في محاولاته للتصدي والوقوف في وجه التحدي للبلاد، بينما استحال الركود إلى جمود، فهبطت الهمم هبوطاً وزاد العقل جهلاً وتضاءلت بوارق النهوض الأدبي، والعلمي، والثقافي، والفني، التي تنبئ بالخير[4].

---

(١) حسين مؤنس: الشرق الاسلامي في العصر الحديث المقدمة ص (٣).

(٢) عبد الكريم غرايبة: العرب والاتراك:ص(٥) مطبعة جامعة دمشق، سنة (١٩٦١).

(٣) عبد الكريم غرايبة: العرب والاتراك المقدمة ، عمر بن عبد العزيز محاضرات في تاريخ الشعوب الاسلامية ص(٥).

(٤) حسين مؤنس: الشرق الاسلامي في العصر الحديث،(القاهرة المكتبه التجارية ط٢ سنة(١٩٣٨)ص(٣٢).

ويمكن تقسيم أدوار التاريخ العثماني إلى ثلاث أدوار:

١- دور الفتح والتوسع، وتكوين الامبراطورية العثمانية التي امتدت من نهر الدانوب إلى شمال المحيط الهندي جنوبا ومن المحيط الأطلسي إلى ايران شرقا وينتهي في نهاية القرن السادس عشر (١٢٨٨- ١٥٦٦م)

٢- دور الغفلة والضعف وتشمل القرنين السابع عشر والثامن عشر فيه تظهر المسألة الشرقية.

٣- دور التجزئة والسقوط ويشمل القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، وفيه فقدت الدولة العثمانية أملاكها وظهرت اليقظة العربية.

خصائص الدولة العثمانية

تتميز الدولة العثمانية بعدة خصائص من اهمهاأنها:

١- دولة عسكرية. ٢- اقطاعية من نوع خاص. ٣- طبقية . ٤- دينية (ثيوقراطية).

١- دولة عسكرية

فكان الشعب دوماً مطيعاً للسلاطين ينظر الى الحرب على انها واجبة، واستأثر الجيش بالمكانة الاولى عند السلاطين وكانت وظيفة الجيش الحرب والاشتراك في الحكم. وكان الجيش يتكون من وحدات نظامية هم المشاة الانكشارية، والفرسان، ووحدات تابعة خاصة بالمدفعية. ووحدات غير نظامية وتتكون من الفرسان والمشاة ولم تكن الدولة تصرف لها رواتب وقت السلم[1].

٢- دولة اقطاعية

وتمثل هذا في نظامين: نظام الاقطاع العسكري ونظام الالتزام. وكان نظام الاقطاع العسكري مطبقاً على سلاح الفرسان دون المشاة ، فكان رجال الجيش يحصلون على اراضي زراعية، وقد شجعت الدولة هذا النظام واتبع الاقطاعيون نظاماً يمنح بموجبه أصحاب الرتب من الضباط مدناً كبيرة.

اما نظام الالتزام: فهي الاراضي التي لاتخضع لنظام الاقطاع العسكري، حيث يتولى حكام الولايات مناصبهم مقابل التزامات: اي شراء مناصبهم لقاء مبلغ معين يدفعون بعضه عاجلاً والآخر آجلاً. ثم يقوم الوالي بتلزيم المقاطعات الى ملتزمين يلتزمون بدفع الضرائب المطلوبة.

٣- دولة طبقية:

أما القول بان الدولة العثمانية دولة طبقية فهو لانها كانت تضم أفراداً من العبيد أو

---

(١) عمر بن عبد العزيز: محاضرات في تاريخ الشعوب الاسلامية،ص(١٦ . ٢٤).

الارقاء، وافراداً من الاحرار، وكانت الهيئة الحاكمة العثمانية باكملها من اصغر فرد إلى الوزير عبيداً للسلطان ، وكان هؤلاء العبيد مسيحيين اصلاً حصل عليهم السلطان أطفالاً وهم في سن صغيرة، وتحولوا الى الاسلام ومصدر هؤلاء الاطفال الشراء والهدايا أو ضريبه الابناء والغلمان ويطلق على هذة الضريبه في اللغة التركية «دفشرمة».

٤- دولة دينية:

لان الهيئة الدينية كان لها وضع معترف به في الدولة، وكان لها مركز مرموق ، كما كان السلاطين حريصين على تدعيم سلطة « شيخ الاسلام». كما انتشرت الطرق الدينية في الدولة[1]

(١) عمر بن عبد العزيز: محاضرات في تاريخ الشعوب الاسلامية،ص(١٦ ، ٢٤)

نشأة الدولة العثمانية

تشير الرواية التاريخية التي تتعلق بجد العثمانيين «سليمان» أنه كان ينتمي إلى عشيرة تركمانية اسمها "قابي"، وكان يحكم منطقة ماهان شمالي شرق ايران في اواخر القرن الثاني عشر الميلادي.

فرّ سليمان مع جماعة من أتباعه أمام الزحف المغولي في مطلع القرن الثالث عشر الى الأناضول ولكنه غرق في نهر الفرات عند قلعة جعبر أثناء عبوره النهر فانقسمت أسرته الى قسمين: الاول بقيادة " كندبار" أحد ابنائه الذي فضل العودة من حيث أتى أما القسم الثاني فكان بقيادة "أرطغرل" الذي استمر نحو الأناضول، إليه ينسب تأسيس الأسرة العثمانية.

ارطغرل: وتشاء الاقدار كما تذكر الرواية، أن يشاهد "أرطغرل" في طريقه جيشين مشتبكين فوقف على مرتفع يشاهد القتال، ولما آنس الضعف في احد الجيشين وتحقق من انكساره، دبت فيه النخوة الحربية فتقدم مع فرسانه مسرعين لنجدة المهزومين وهاجم الجيش الغالب فهزمه لحسن الحظ كان هؤلاء من المغول بقيادة الخان "اوكتاي بن جنكيز خان" بينما كان الجيش الذي هب هو جيش علاء الدين السلجوقي .

اعترف "علاء الدين الأول" (١٢١٩-١٢٣٥) السلجوقي بفضل ارطغرل، فكافأه على نجدته ونصرته إياه، وعلى مساعدته، واقطعه بقعة من دولته في غرب الاناضول وهي سهول سكود والمرتفعات الشرقية من جبال " طومانيج " على الحدود البيزنطية ، ومنحه لقب (اوج بكي) أي حارس الحدود.

مراحل التوسع العثماني

مّرت عمليات التوسع العثماني بمراحل ثلاث:

المرحلة الأولى: وقد اقتصرت عمليات الفتح والتوسع فيها على البلقان في أوروبا وعلى الأناضول في اسيا الصغرى . واصبحت الدولة العثمانية دولة بلقانية أناضولية وامتدت

هذه المرحلة من قيام الامارة العثمانية حتى وفاة السلطان «بايزيد الثاني» عام (١٥١٦). وشهدت هذه الفترة تطوراً سياسياً وادارياً في الدولة العثمانية، فقد تحولت من الامارة إلى درجة الدولة ثم إلى الامبراطورية، وانتقلت العاصمة بين الأناضول والبلقان : من بروسه، إلى أدرنة، ثم إلى القسطنطينية.

المرحلة الثانية: اقتصرت عمليات التوسع والسيطرة على الشرق العربي الاسلامي، فضمت الدولة لأول مرة بلاد الشام وشمال افريقيا، وقد حدث هذا التطور الاستراتيجي في عهد السلطان "سليم الاول"(١٥١٢-١٥٢٠).

برز في هذه المرحلة الطابع العربي الاسلامي، وضمت الدولة لأول مرة عدداً من شعوب الأمة العربية، فزادت رعاياها المسلمين، وأصبحت الدولة العثمانية تتولى زعامة العالم الاسلامي، وبخاصة حينما أجبر الخليفة العباسي عن التنازل عن الخلافة.

المرحلة الثالثة اتجهت التوسعات في هذه المرحلة إلى القارات الثلاث: (أوروبا،آسيا، افريقيا) وبرز في هذه المرحلة فتح الجبهات البحرية في حوض البحر الأبيض المتوسط، والبحار الشرقية :المحيط الهندي والخليج العربي.

وتزامنت هذه المرحلة مع ارتقاء السلطان "سليمان القانوني" عرش الدولة عام(١٥٢٠) واستمرت في عهد خلفائه، وبذلك أصبحت الدولة العثمانية دولة اسيوية افريقية اوروبية[1] .

---

(١) عمر بن عبد العزيز: محاضرات في تاريخ الشعوب الاسلامية، ص (٣١ ,٣٢).

عصر التوسع العثماني

عثمان(١٢٨٨-١٣٢٦م)

ولما توفي ارطغرل سنة (١٢٨٨)م ، تولى بعده ابنه الأكبر عثمان ، واستطاع عثمان أن يفتح قلعة "قرة حصار "سنة(١٢٨٩)م من البيزنطيين، مما دفع علاء الدين السلجوقي إن يلقبه بلقب بك، ويمنحه الأراضي والقلاع التي استولى عليها وأجاز له ضرب العملة وذكر اسمه في خطبة الجمعة.

استأثر عثمان بجميع الأراضي المقطعة له عندما توفي علاء الدين سنة(١٣٠٠)، فلقب نفسه (باديشادة آل عثمان)، وجعل مقره مدينة «يكي شهر» بعد أن حصنها، ثم احتل نيقيا، وأخذ يعمل في تنظيم سلطنته[1] وهرعت القبائل المجاورة إلى الإمارة العثمانية وزادوا قوتها.

وسهل موقعها الاستراتيجي مجيء العلماء والعناصر المنظمة كالتجار والصناع، فحلوا بذلك مشكلة موارد الأمارة، كما نشأ بين الجميع مع الامارة رابطة ولاء ودفاع ، ثم اتخذت هذه الرابطة مظهراً عسكرياً ، واستفادت امارة عثمان من كثرة العنصر المحارب فيها، فازدادت مكانتها العسكرية مما دفعها إلى الغزو في كل من الأناضول، وشبه جزيرة البلقان.

وبذلك تكاتفت العوامل التاريخية والجغرافية لتطوير الامارة العثمانية حيث توفرت لها عمليات النمو والتطور السريع.

وهكذا يتبين لنا ان عثمان هو واضع الدعائم الاولى للدولة، فقد قام بتوسيع حدود امارته بعد أن اتخذ عاصمة لها، فلاعجب اذا نسبت الدولة العثمانية إليه.

أورخان:(١٣٢٦-١٣٦٠م)

كانت التحركات الحربية السابقة وماتلاها بداية لسياسة حربية نشيطة،وقد قام اورخان بن عثمان ببعض العمليات العسكرية الهامة، فاستولى على إزنك "Iznik"ونيقيا"Nicaea"عام (١٣٣٠)م ، ثم قام امتصاص كل ماتبقى من الاناضول البيزنطي، وعبر العثمانيون المضايق

---

(١) ابراهيم خليل أحمد: تاريخ الوطن العربي في العهد العثماني،ص (١٢)جامعة الموصل، سنة (١٩٨٦).

إلى أوروبا لتصبح شبه جزيرة «غاليبولى» "Gallipoli" قاعدة لزحف جديد شرقي أوروبا ، وكان أعداء العثمانيين هم الصرب والبلقان وليس البيزنطيين الذين فقدوا كل أراضيهم ماعدا اسم الامبراطورية والعاصمة[1] ويعود الفضل إلى اورخان في تأسيس الجيش الانكشاري الذي كان له الفضل في توسيع رقعة الدولة في هذا العهد، وكان هذا الجيش من خمس الاسرى المخصصين للدولة، ثم أصبح يتكون من ضريبة الدفشرمة(الاطفال) التي تقدم للدولة، كان هؤلاء الاولاد يؤخذون الى ثكنات عسكرية، فيربون تربية خاصة ليوقفوا حياتهم على الجهاد وخدمة الدولة والولاء للسلطان.

مراد الأول (١٣٦٠-١٣٨٩م)

بدأ حياته بعد إبيه بالتوسع في البلقان. فاستولى على ثاني مدينة بيزنطية بعد القسطنطينية ألا وهي "أدرنة Adrianople"ثم زحف إلى المناطق التي تقع شمال القسطنطينية، فواجه تحالفا مكوناً من الصرب وبلغارية بقيادة " لازار Lazare فانتصر عليهم على أرض "كوسوفو Kossovo" (الطيور السوداء) في حزيران سنة(١٣٨٩) الا ان السلطان وقع شهيدا في المعركة[2].

بايزيد بن مراد (١٣٨٩-١٤٠٢م)

وتوطدت اقدام العثمانيين في البلقان بعد النصر الذي حققه بايزيد على الحملة الصليبية التي تقدمت من وسط أوروبا عند مدينة "نيكوبوليسNicopolis" على نهر الدانوب سنة(١٣٩٦م)، وقد سمي السلطان بعد الانتصار" يلدرم" أي الصاعقة.

وتوسعت الدولة في عهده على حساب البلقان، والاتراك، والسلاجقة، طبقاً لجهاز حرب عالي التنظيم، وتحول الأساس العسكري من قوات جمعت في البداية من أسرى الحرب الى قوات من العبيد (الانكشارية) ادخلت في الاسلام .

(١) عمر بن عبد العزيز عمر : محاضرات في تاريخ الشعوب الاسلامية، ص(٣٧).
(٢) المرجع نفسه:ص(٣٧).

وتوقف تطور الامارة العثمانية من إمارة حدود إلى امبراطورية عالمية عند هذه المرحلة وعندما غزا "تيمورلنك" الدولة العثمانية وابتدأ بتخريب سورية ليمنع تدخل المماليك واجه بايزيد المرهق من التخطيط والتجهيز لفتح القسطنطينية والتقى مع تيمورلنك في معركة قرب انقرة سنة(١٤٠٣م) حيث هزم بايزيد ووقع في الأسر، ثم وضع حداً لحياته بالانتحار، وقد كان لمعركة انقرة أثر على الدولة ادى إلى صراع بين أبناء السلطان دام عشر سنوات(١٤٠٣-١٤١٣م)، وأخرّ فتح القسطنطينية خمسين سنة[1] كما تمزقت الدولة .

محمد الأول (١٤١٣-١٤٢١م)

تولى السلطة بعد صراع مع اخوانه، وتمكن من ازالة اثار هزيمة معركة انقرة، فعمل على تنظيم الأمارة ولم شملها فأصبحت الامارة قوية، واتخذ "أدرنة" عاصمة محل "بروسة"

مراد الثاني (١٤٢١-١٤٥١م)

تولى بعد أبيه، فقام بتنظيم الامبراطورية التي أصبحت تضم إمارات الأناضول الغربية والوسطى، بالاضافة الى البلقان فقد استولى على" سالونيك" في ٢٩ آذار سنة (١٤٣٠م)، وقام بعملية تجنيد المسيحيين بجمع الشباب السلافي باسم الدفشرمة * .

محمد الثاني (الفاتح) (١٤٥١-١٤٨١م)

أعاد السلطان محمد بناء وتوسيع الدولة العثمانية وقد استطاع السلطان محمد الثاني أن يحقق عملاً باهراً طالما تطلع اليه حكام المسلمين منذ الخليفة معاوية بن ابي سفيان ألاوهو فتح القسطنطينية وقد كان السلطان يرى في فتحها تدعيماً لممتلكات الدولة العثمانية في اوروبا.

مهد السلطان محمد الثاني لفتح القسطنطينية باستكمال المنشآت التي بدأها بايزيد

---

(١) عمر عبد العزيز عمر: محاضرات في تاريخ الشعوب الاسلامية، ص(٣٩).

* الدفشرمة: معناها في التركية: الجمع او ضريبة الغلمان.

على مقربة من المدينة المستهدفة، وقام بتجديد المعاهدات واتفاقيات الهدنة حتى يضمن عدم مهاجمته، ثم اخذ يحاصر المدينة، واستمر الحصار ثلاثة وخمسين يوماً، ثم وقعت المدينة مستسلمة في يوم الثلاثاء التاسع والعشرين من أيار سنة (١٤٥٣م)، وأصبحت مدينة الأباطرة ثالث وآخر عاصمة لدولة العثمانيين، واطلق عليها اسم" اسلامبول" أي عاصمة الاسلام.

واتجه السلطان الفاتح الى كنيسة "أيا صوفيا" حيث أذن المؤذن للصلاة ثم صعد الى مربع الكاتدرائية وأدى صلاة الظهر ايذانا بتحويلها الى مسجد، واليه يعود الفضل في بناء مسجد، فوق ضريح الصحابي "أبي أيوب الأنصاري" الذي استشهد في حصار المدينة في عهد معاوية بن أبي سفيان.

لقد ادى فتح القسطنطينية إلى رفع مكانة العثمانيين في العالم الاسلامي، كما كان ايذانا بنهاية فترة تاريخية وبداية عصر جديد فقد أدى ذلك الى رحيل الكثير من العلماء الى الغرب مما أدى للازدهار الثقافي كما تغيرت طرق التجارة العالمية حيث أدت بدورها إلى الاكتشافات الجغرافية.

الصراع بين ابناء محمد الفاتح

انتقل السلطان محمد الفاتح الى رحمة الله عام (١٤٩١م) فبدأ الصراع بين ولديه، "بايزيد، وجم" وبويع بايزيد بالسلطان لسبقه أخيه في الوصول الى العاصمة، فعزم شقيقه جم على انتزاع العرش منه، فتوجه إلى بروسة حيث نودي به سلطاناً، ثم اقترح جم على اخيه تقسيم الدولة بينهما على ان يكون هو سلطاناً على القسم الاسيوي بينما بايزيد سلطاناً على القسم الأوروبي.

رفض بايزيد اقتراح اخيه، وتعقب شقيقه جم وأوقع به هزيمة منكرة، فرّ على اثرها جم من الأناضول الى الشام ومنها الى القاهرة عام(١٤٨٢م) لاجئاً سياسياً لدى السلطان الاشرف "قايتباي" الذي رحب به وزوده بالمال حيث قام في العام التالي بالرحيل الى "قونية" نزولا على رغبة انصاره، ثم التحم مع اخيه حيث هزم للمرة الثانية، فالتجأ إلى " رودس" حيث

فرسان القديس يوحنا، وبقي فيها إلى ان مات (جم) سنة (١٤٩٥م)[1].

لقد ادت مساعدة المماليك لجم إلى زيادة سوء التفاهم بين دولة المماليك والدولة العثمانية، وهذا أدى بدورة الى الاحتكاكات المستمرة على الحدود ثم تطورت إلى الحرب، فقام العثمانيون بغزو "قليقية" عام (١٤٨٥م)، وتمكن "داوود باشا" (الصدر الأعظم) من احتلالها عام (١٤٨٧م).

أخذ المماليك يخشون قوة العثمانيين واتسع نطاق الحرب بين الدولتين، فقام قايتباي بعدة محاولات دبلوماسية لانهاء حالة الحرب بين الطرفين إلا أن المحاولات تعثرت بسبب الشك وعدم الثقة بين الطرفين واخيراً عقد الصلح بينهما على اقرار الوضع الراهن سنة (١٤٩١) الذي ظل نافذ المفعول حتى عام (١٥١٢)م عندما أجبر السلطان "سليم الأول" أباه بايزيد على التنازل عن العرش[2].

علاقة العثمانيين مع الصفويين والمماليك

وجد في العالم الاسلامي في بداية القرن العاشر الهجري- السادس الميلادي ثلاث قوى اسلامية وكل منها تحاول التوسع على حساب الأخرى، وكل واحدة تحاول أن تتزعم العالم الاسلامي، وقد وجدت القوة الصفوية في الشرق (ايران والعراق) بينما كانت قوة العثمانيين في الغرب (اسيا الصغرى)، وقوة المماليك في(بلادالشام).

وكان الصفويون من غلاة الشيعة، بينما العثمانيون والمماليك من اهل السنة ومن الطبيعي ان تتأزم العلاقات بين العثمانيين والصفويين من جهة وبين العثمانين والمماليك بسبب متاخمة الأراضي، والصراع على النفوذ.

واذا كان المماليك والصفويين في حالة ضعف وانحطاط فقد كان العثمانيون في طريق الأوج ولذلك كانوا يطمحون لزعامة العالم الاسلامي، وقد وجدت مناسبات عدة للاحتكاك ثم تحول ذلك إلى صدام عسكري[3].

---

(١) عمر بن عبد العزيز عمر: محاضرات في تاريخ الشعوب الاسلامية، ص(٤٢).

(٢) عمر بن عبد العزيز، محاضرات في تاريخ الشعوب الاسلامية،ص(٤٤).

(٣) عبد الكريم رافق: بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني الى حملة نابليون، ص (٤٣) ، (جامعة دمشق سنة ١٩٦٧).

علاقة العثمانيين مع الصفويين:

ينسب الصفويون إلى الشيخ الصوفي: "صفي الدين الجيلاني"(٦٤٨- ٧٣٥هـ) (١٢٥٠- ١٣٣٤م) وكان هذا رئيساً لشعبة دراويش ، خلفه ابنه "صدر الدين" ثم حفيده "الخواجا علي" الذي اتصل بالقائد المغولي "تيمورلنك" خلال غزوه للأناضول وتعاون معه[١] وخلفه ابنه ابراهيم واخيراً انتقلت الرئاسة إلى الشيخ "جنيد بن ابراهيم" الذي بدأ بنشاط عسكري في منطقة شيروان، وجمع حوله أكثر من عشرة آلاف مقاتل ، وبذلك حول المشيخة إلى حركة سياسية قائمة على القوة مما اثار مخاوف" شاة جهان وشيروان شاه" الذي هزم جنيد وقتله (٨٥١هـ- ١٤٤٧م)، فخلف جنيد ابنه حيدر الذي استقر "بأردبيل" وكثر اتباعه التركمان في فارس، وكرمان، والاناضول، ولكن" شيروان شاه" هزم حيدر وقتله.

كتب سلطان الآمة قيونلو(الخروف الابيض) يعقوب بن حسن الطويل"رسالة الى السلطان" بايزيد العثماني" وأعلمه بمقتل حيدر، ووصفة بشيخ أرباب الضلال، فشكره بايزيد[٢].

لجأ أبناء حيدر الى خالهم "يعقوب بن حسن" الذي وضعهم تحت الحراسة المشددة، ولكن اولاد حيدر انتهزوا نشوب حرب أهلية في دولة الآمه قيونلو(الخروف الابيض) فانتقلت الزعامة إلى" اسماعيل بن حيدر"(١٥٠٠-١٥٢٤)م واتخذ لقب شاهنشاه[٣]واستطاع هذا أن ينتقم لأبيه وجده من شيروان شاه سنة (٩٠٦هـ-١٥٠٠)م فاحتل "باكو"، وتغلب على" الوند" ملك قيونلو واستولى على "تبريز" عام (٩٠٨هـ-١٥٠٢)م، وبذلك أسس اسماعيل دولة شيعية بمساعدة قبائل التركمان[٤]، وضم العراق للإفادة من مجالها الاقتصادي ومستغلا أوضاعها السياسية المتدهورة أنذاك.

حكم الصفويون ايران سنة (١٥٠٨)م؛ لوجود العتبات المقدسة فيها واحيانا العراق اكثر من قرنين وربع، وكانت دولتهم شيعية المذهب تحيط بها دول سنية:"الأزبك" في تركستان

---

(١) ابراهيم خليل احمد: تاريخ الوطن العربي الحديث والمعاصر:ص(١٢).

(٢) عبد الكريم غرايبه: العرب والأتراك،جـ٢، ص(٢٠٧)،عمر بن عبد العزيز:محاضرات في تاريخ الشعوب الاسلامية، ص(٥٩).

(٣) رافق : بلاد الشام ومصر،(٥٢).

(٤) عبد الكريم غرايبة: المرجع نفسه، جـ٢،ص ٢٠٩، عمر بن عبدالعزيز: المرجع نفسة ،ص(٦٠).

"والعثمانيون" في الأناضول "والمماليك" في بلاد الشام "ومصر والمغول" في الهند، فلم يجد الصفويون صديقاً وحليفا غير البرتغاليين.

تغلب اسماعيل الصفوي على" شيبان خان" سلطان الأزبك سنة(٩١٦هـ-١٥١٠م) وقتله، إلا أن عبيد بن شيبان ثأر لأبيه (٩١٨هـ-١٥١٢م) وأرسل إلى السلطان سليم العثماني مبشراً إياه بانتصاره على« شرذمة قليلة زنادقة أوباش ملحدة»[1]، واستمر النزاع بينهما طوال القرن.

خضع العراق للصفويين مرتين كان مجموعهما ثلاثاً واربعين سنة ، فقد احتلها الشاه اسماعيل في جمادى الثانية (٩١٤هـ-١٥٠٨م)، وعين عليهما "خادم بك ابومنصور" وسماه خليفة الخلفاء[2].

احس السلطان سليم بعظم الخطر الذي يواجهه، فكان لابد أن يكون على قدر كبير من تفهم الوضع الدولي، وهذا دفعه الى تركيز اهتمامه بشؤون دار الاسلام فبدأ بالاعداد إلى مواجهة الصفويين لوضع حد لتحرشاتهم، ثم المماليك وأخيراً إلى الاوروبيين[3].

لم يكن البدء بالصفويين قضية عفوية بالنسبة إلى السلطان سليم فقد كان نتيجة لرغبته في وضع حد إلى النشاط المذهبي والعسكري في اسيا، ومن ثم الحدود المتداخلة بين الدولتين كما هو الحال في شمال العراق حيث حاولت كل من الدولتين ضم الامارات المغولية والتركمانية. هذا فضلاً عن تشجيع الدولة الصفوية بعض الامراء(جم)، واحمد بن بايزيد للتمرد على الدولة . كما لانستطيع أن ننسى سياسة التعصب المذهبي[4] ، هذا فضلاً عن تعاون دولة المماليك في مصر والشام، وإمارة ذي القادر(شمال بلاد الشام) وملك جورجيا ضد العثمانين، كما لاننسى العوامل الاقتصادية المتمثلة بتجارة الحرير الذي كانت تبيعه الى الغرب مقابل السلاح، ورغبة العثمانين في الحيلولة دون تصديره الى الغرب[5]، كما لاننسى تحالف الشاه

---

(١) ابراهيم خليل احمد: تاريخ الوطن العربي في العهد العثماني، جـ٢ص (٢٣).

(٢) علي حسون: تاريخ الدولة العثمانية،ص(٥٥).

(٣) عمر بن عبدالعزيز عمر: محاضرات في تاريخ الشعوب الاسلامية ، ص(٦١)،عبد الكريم غرايبة: مقدمة في تاريخ العرب الحديث ص(١٧)،(مطبعة جامعة دمشق سنة ١٩٦١).

(٤) ابراهيم خليل احمد: تاريخ الوطن العربي،ص(٢٤).

(٥) غرايبة : المرجع السابق، ص(٢٠٩).

اسماعيل مع الدول الاوروبية[1].

لهذه الأسباب وغيرها كان لابد من الى اللجوء للسيف لحل النزاع بينهما، وقد بدأ الصراع بتبادل الرسائل العنيفة ثم تطور الى القتال.

التقى الجيشان في سهل "جالديران" وعلى الحدود الغربية لايران في ٢٢ محرم سنة (٩٢٠)هـ الموافق ٩ آذار سنة(١٥١٤)م وكان النصر للجيش العثماني الذي احتل العاصمة "تبريز" وهرب" اسماعيل الصفوي" إلى الشرق" همدان" ويعود النصر لتفوق المدفعية العثمانية ونشاط المشاة العثمانيين، وسقطت اثر معركة "جالديران" ديار بكر، وشمال العراق، فارسل السلطان سليم للعراق:" محمد الآمدي" والياً. وبذلك تحرر العراق من الصفويين، وخضع للحكم العثماني قرابة اربع قرون، حيث تمّ توثيقة بالعالم العربي[2] وهكذا كانت نتيجة الصراع بين العثمانيين والصفويين:-

١- ضم شمالي العراق، وديار بكر إلى الدولة العثمانية.

٢- أمن العثمانيون حدود دولتهم الشرقية.

٣- سيطرة المذهب السني في آسيا الصغرى بعد ان قضى على اتباع واعوان اسماعيل الصفوي ثم هزيمة الشيعة في جالديران وهذا أ شعر الدولة بمسؤوليتها تجاه العالم الاسلامي، وبخاصة بعد أن أعلن السلطان نفسة حامياً للمسلمين[3].

٤- شعور الدولة العثمانية بضرورة القضاء على القوة الثانية ألا وهي دولة المماليك لانهاء نفوذهم.

---

(١) رافق: بلاد الشام ومصر،ص(٩٥).علي حسونة: تاريخ الدولة العثمانية،ص(٥٤).

(٢) ابراهيم خليل أحمد: تاريخ الوطن العربي في العهد العثماني، ص (٢٣).

(٣) عبد الكريم غرايبه: العرب والترك،٢ ص(٢١٢)(مطبعة جامع دمشق سنة (١٩٦١) حسونه: تاريخ الدولة العثمانية،ص(٥٦).

الفصل الثاني

*الوطن العربي تحت الحكم العثماني

« منذ القرن السادس عشر وحتى القرن التاسع عشر »

*حالة الوطن العربي في القرن التاسع عشر

*الحركات الانفصالية عن الدولة العثمانية



الفصل الثاني
الوطن العربي تحت الحكم العثماني
«منذ القرن السادس عشر حتى نهاية القرن التاسع عشر»

أولاً:دخول الوطن العربي تحت الحكم العثماني

علاقة العثمانين بالمماليك

مرت العلاقة بين الدولة العثمانية والملوكية بمرحلتين:

١- مرحلة المؤازرة والمجاملة: وتبدو هذه المرحلة حتى أواخر القرن الخامس عشر، فقد كان بين الدولتين السنيتين مراسلات وتبادل الوفود والهدايا، فعندما فتح السلطان "محمد الثاني" القسطنطينية عام (١٤٥٣م) ارسل الأشرف" إينال" رسولاً الى السلطان محمد الفاتح يهنئه بهذا الانتصار كما قدم السلطان" بايزيد الثاني" المساعدات للمماليك حين تفاقم الخطر البرتغالي في البحر الأحمر[1].

٢- مرحلة المواجهة العسكرية: ويعود ذلك لعدة أسباب:

أ) ترحيب المماليك" بجم" سنة (١٤٨٢م) عندما نازع شقيقه السلطنة ثم هزم ففر إلى مصر لاجئاً سياسياً عند السلطان الاشرف قايتباي[2]. كما آوى" الغوري" الامير قاسم العثماني أحد ابناء الأمير أحمد الذي قتله السلطان" سليم" واتخذ منه سلطان مصر أداة للتهديد[3].

ب) تحالف المماليك مع الصفويين في عهد كل من الشاه "اسماعيل الصفوي وقونصوه الغوري" وقد وضعت المحالفة موضع التنفيذ في ربيع عام (١٥١٦م)؛ عندما جهز السلطان سليم حملة جديدة ضد احد الاقاليم الصفوية، فعبأ السلطان قونصوه الغوري قواته وبدأ الزحف عبر سوريا[4].

---

(١)) ابراهيم خليل أحمد: تاريخ الوطن العربي في العهد العثماني،ص (٣٤).

(٢) عمر بن عبد العزيز عمر: محاضرات في تاريخ الشعوب الاسلامية ،ص(٤٢).

(٣) المرجع نفسه،ص(٦٥) رافق بلاد الشام ومصر،ص(٩٦).

(٤) عمر بن عبد العزيز:محاضرات في تاريخ الشعوب الاسلامية ص،٦٤. ابراهيم خليل أحمد: تاريخ الوطن العربي، ص(١٣).

جـ) حشد تحالف مؤلف من إمارة "ذي القادر" التركمانية شمال بلاد الشام، وملك جورجيا بالاضافة إلى المماليك والصفويين [1].

د) شعور السلطان المملوكي بالضيق الشديد لضم السلطان سليم إمارتي" ذي القادر- والبستان"الفاصلتين بين حدود الدولتين وقتل أميرها "علاء الدولة" سنة (١٥١٥م) حليف المماليك، وزاد في حنقه ان السلطان" سليم ارسل اليه رؤوس «علاء الدولة، وولده، ووزيره»"[2].

هـ) عدم سماح المماليك للعثمانيين بالسير ضمن اراضي الدولة المملوكية للوصول الى البرتغال لمنازلتهم خوفاً على حكمهم ومصالحهم وخوفا على جيرانهم الذين يعتبرون السماح لدخول العثمانيين أراضي المماليك اعتداء عليهم[3].

لتلك الأسباب كان لابد من حتمية الصراع بين الدولتين، بخاصة أن الدولة العثمانية كانت في حالة ازدهار وتقدم، وانتصار مستمر، الأمر الذي جعل السلطان سليم يشعر بأحقيته في تزعم العالم الاسلامي[4]. وضرورة حماية الحرمين الشريفين (مكة والمدينة) وبخاصة عدم قدرة المماليك على حمايته.

وقد بدا هذا واضحاً بعد هزيمة الاسطول المملوكي امام الاسطول البرتغالي مقابل جدة ثم خرابها وخلوها من البضائع[5] .هذا فضلاً عن سوء الأحوال السياسية الناتجة عن الانقسامات والخلافات في ذلك الوقت بين قيادات المماليك وسوء الاحوال الاقتصادية الناتجة عن تحوّل الطرق التجارية عن مصر[6]، مما ادى الى تدهور الأحوال الاقتصادية التي ادت بدورها الى قيام الفتن والثورات في البلاد وليس غريباً أن تُحدث سليماً نفسه بعد ما وصلت إليه الدولة من القوة والعظمة اعطاء الشرعية لحكمه اعتبار نفسه خليفة للحصول على الاحترام

---

(١) ابراهيم خليل: تاريخ الوطن العربي،ص (١٣).

(٢) عمر بن عبد العزيز: محاضرات في تاريخ الشعوب الاسلامية، ص(٦٤).علي حسونه: تاريخ الدولة العثمانية ،ص(٥١). رافق، بلاد الشام،ص(٩٦).

(٣) علي حسونة: تاريخ الدولة العثمانية، ص(٥٤ ، ٥٥).

(٤) ابراهيم خليل احمد: تاريخ الوطن العربي، ص(١٢).

(٥)) غرايبه: مقدمة في تاريخ العرب الحديث، ص (١٥).

(٦) جلال يحي: العالم العربي الحديث، ص (٣١).

والتقدير من قبل الشعوب الاسلامية.

لقد أدت العوامل السلبية بين الدولتين إلى تأزم العلاقات بينهما، التي تطورت بدورها الى المواجهة العسكرية في بلاد الشام أولاً ثم مصر.

ضم العثمانيين بلاد الشام:مرج دابق(٩٢٢هـ-١٥١٦م).

احس العثمانيون بقدرتهم العسكرية الفاعلة التي أثبتت فاعليتها مع الصفويين في معركة "جالديران "، كما أنها ضمت إمارة " هي ذي القادر"التركماني (البستان) وبذلك أصبحت وجهاً لوجه أمام المماليك.

و ساعدت التجهيزات العسكرية الحديثة العثمانيين في تحقيق النصر، فلاعجب إذا كان السلطان العثماني يريد أن يحقق أهدافه البعيدة المدى« الاستراتيجية» في تزعم العالم الاسلامي، بدءاً بضم العالم العربي الاسيوي والافريقي.

و لعل من العوامل المساعدة نحو تحقيق الأهداف ما كانت تمر به دولة المماليك من حالة تخلف وضعف[1]، إذا ما قورنت بالاحوال العثمانية وشعر السلطان المملوكي"قونصوه الغوري" بالشكوك المتزايدة في نوايا العثمانيين لضم بلاد الشام، ومصر، وان الصراع بينهما آت لا محالة، وبخاصة بعد ضم إمارة "علاء الدولة" واصبحت الحدود بين الدولتين متماسة مما زاد في توتر العلاقات بين الدولتين ووضع المحالفة المملوكية الصفوية موضع التنفيذ عندما جهز السلطان "سليم" حملة على أحد الاقاليم الصفوية في ربيع عام(٩٢٢هـ- ١٥١٦م). فقام السلطان قونصوه بتعبئة قواته، وبدأ بالزحف عبر بلاد الشام تاركا "طومن باي"- احد القادة الكبار نائبا عنه في القاهرة خلال غيابه[2].

خرج السلطان" قونصوه الغوري" في ١٦ أيار سنة(١٥١٦م) قاصداً البلاد الشامية، وفي حزيران وصل غزة وقضى بها خمسة ايام، ثم رحل بعد ذلك الى دمشق فمكث بها تسعة أيام، ثم توجه بعدها الى حمص، فحماة حتى وصل حلب في اوائل حزيران وجعل منها قاعدته

---

(١) ابراهيم خليل أحمد: تاريخ الوطن العربي، ص(٣٤).

(٢) عمر بن عبد العزيز عمر: محاضرات في تاريخ الشعوب الاسلامية، ص (٦٥).

الامامية.

وصلت أنباء تحركات الجيش المملوكي الى القائد العثماني" سنان باشا" الذي كان معسكراً في البستان التركمانية(ذي القادر التركمانية)، فأرسل بذلك إلى السلطان سليم لاتخاذ الاجراءات العسكرية المناسبة لهذة التهديدات، فقام السلطان بالانضمام إلى قائده سنان باشا على رأس حملة كبيرة.

وكان أمام العثمانيين خياران التجاهل أو المواجهة فآثروا الخيار الثاني لان في انتصارهم على المماليك انهاء لحالة الجمود القائمة بين المماليك والعثمانيين.

اما السلطان قونصوه فكان وضعه سيئا ًعلى الرغم من انة كان يرى أنه لامفر من القتال، وتمثل هذا الوضع بتخلي السكان المحليين عن المماليك وعدم مساعدتهم .بل أكثر من ذلك: استعدادهم للثأر نتيجة الدعاية العثمانية التي وعدتهم بارساء قواعد العدل. هذا فضلاً عن وجود الانقسامات بين القادة الكبار في جيش المماليك (خاير بك حاكم حلب، جانبرد الغزالي حاكم دمشق، وفخر الدين المعني حاكم لبنان) واستعدادهم للتخلص من قونصوه الغوري في سبيل المحافظة على مراكزهم[1]. تقابل الجيشان في(٢٤/ رجب/ ٩٢٢هـ) الموافق في (٢/آب/١٥١٦م)في" سهل مرج دابق"و يعرف بتل الفار بالقرب من حلب وظهر التفوق العسكري لقوات المشاة والمدفعية العثمانية. مما ادى الى تراجع قوات المماليك، وزاد الأمر سوءاً عندما انفصل خاير بك(حاكم حلب) وقائد ميسرة الجيش المملوكي بمن معه وانضم الى العثمانيين بعد ان اشاع هزيمة المماليك، وتبعه جانبرد الغزالي وفخر الدين المعني[2].

حاول السلطان قونصوه ايقاف الشائعة، فاخذ يقاتل ببسالة فسقط مصاباً ثم مات وذاع نبأ وفاته فولى جنود المماليك هاربين، ونهب المعسكر المملوكي وتم الاستيلاء على ما فيه من سلاح ومال.

اغلق اهالي حلب أبواب مدينتهم في وجه المماليك الهاربين، بينما فتحت المدينة أبوابها للعثمانيين في(٢٨-اب) واستقبل السلطان سليم بالحفاوة والترحاب فخرجوا الى لقائه حاملين

---

(١) عمر بن عبد العزيز :المرجع نفسة ،ص (٦٧). على حسونه: تاريخ الدولة العثمانية ،ص(٥٧)، ابراهيم خليل:تاريخ الوطن العربي،ص(٣٥).

(٢) علي حسونه: تاريخ الدولة العثمانية،ص(٥٧). رافق: بلاد الشام ومصر،ص(٩٨).

المصاحف والاعلام، وتمت خطبة الجمعة باسم السلطان سليم، ومكث فيها ثمانية عشر يوماً نظم فيها شؤون المدينة العامرة التي كان يقطنها حوالي مائتي الف نسمة يزاولون النشاط التجاري على نطاق واسع[1] .

استمر العثمانيون في تقدمهم نحو دمشق، فوصل الجيش العثماني حماة في(٢٠ ايلول عام (١٥١٦)، وبعد يومين حمص وفي(٩تشرين أول) دمشق، وقصد امراء لبنان، فرحبوا به والقى نيابة عنهم الأمير" فخر الدين المعني" خطبة اعتبره فيها ناصر الشريعة وقائد الأمة الطاهرة الزاهرة[2] .

ولم تلبث طرابلس، وصفد، ونابلس، والقدس، وغزة أن القت سلاحها ولم تعمد الى أية مقاومة[3].لان الاحوال في بلاد الشام كانت سيئة منذ بداية الحروب الصليبية، فكانت أكثر موانئها خربة فلم تكن الاسكندرون غير مجموعة من الاكواخ الحقيرة، وكانت اللاذقية وصور وحيفا خرائب. أما صيدا وعكا ويافا وغزة فكانت قرى صغيرة والمدينة المنتعشة هي طرابلس لانها كانت ميناء لتجارة دمشق وحلب.

ولم تكن أحوال المراكز الداخلية بافضل من مدن الساحل ، فقد بقيت جرش، وعمان، وصفد، وطبريا، وبيسان، والرملة خرائب غير مسكونة وكانت اللد والمجدل واسدود وبئر السبع قرى صغيرة اما الكرك والسلط وعجلون فكانت قرى كبيرة ولم يزد عدد سكان القدس عن عشرة آلاف نصفهم فقط من المسلمين[4].

لذلك فلاعجب إذا فرح الناس بالحكم الجديد ورحبوا به واعتقدوا ان السلطان العثماني قادر على رفع مستوى البلاد من النواحي الاقتصادية والاجتماعية والادارية كافة.

---

(١) كمال غرايبه: مقدمة في تاريخ العرب الحديث جـ١ ، ص(٢٢) ، ابراهيم خليل : تاريخ الوطن العربي ، ص (٣٦) .

(٢) ابن أياس: جـ٢، ص(٤٦-٤٩). غرايبة: مقدمة في تاريخ العرب الحديث، جـ١، ص (٢٢).

(٣) حتي: تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، جـ٢ ،ص (٣٠٦).

(٤) غرايبة : مقدمة في تاريخ العرب الحديث، جـ١ ، ص(٢٣ ، ٢٤)

ضم مصر:

لم يبق على السلطان سليم الا اتخاذ الخطوة الأخيرة للاطاحة بسلطان المماليك في مصر، فاستمر في تقدمه حتى وصل غزة وأخذ يعد نفسه الى اللقاء الذي أصبح حتمياً بالنسبة له.

أما المماليك العائدون، فقد اجتمعوا لدراسة الموقف الناجم عن الهزيمة وبدأوا يعملون لتدعيم القوة الدفاعية للصمود أمام التقدم العثماني المرتقب، فاختار المماليك في العاشر من تشرين الاول "طومن باي" سلطاناً. أرسل السلطان سليم سفارة الى سلطان مصر طومن باي يعرض عليه الاعتراف به كحاكم تابع له على ان يسك النقود باسمه وكذلك الخطبة وإلا فهو معرض الى بأس السلطان هو ومن معه[1].

لم تنجح سفارة السلطان سليم، فقام طومن باي بارسال جيش الى غزة لاستردادها في٢١ كانون الاول عام(١٥١٦م)، إلا ان الهزيمة حلت بهذا الجيش المملوكي نتيجة خطة "سنان باشا" الذي استعمل المدفعية بأسلوب فني الحق به الهزيمة. فتقدم الجيش العثماني نحو مصر، ورغب طومان باي في التصدي للعثمانيين عند "الصالحية" وقبل ان يصلوا موارد المياه والرعي ولكن خطته باءت بالفشل نتيجة المعارضة من كبار قواده الذين أصروا على الوقوف عند معسكر" الريدانية" خارج القاهرة مباشرة حيث تم اللقاء في(٢٩-ذي الحجة -٩٢٤هـ) الموافق (كانون الثاني-عام ١٥١٧م) .

وتقررت نتيجة مصر عندما هزم جيش المماليك وفرّ السلطان طومان باي من أرض المعركة، وفتحت ابواب القاهرة، وخطب في اليوم التالى وكان آخر ايام السنة الهجرية – في مساجد القاهرة للسطان سليم «مالك البرين والبحرين وكاسر الجيشين وسلطان العراقين وخادم الحرمين الشريفين الملك السلطان" سليم شاه"».

لم ييأس طومان باي من آمل الانتصار، واخذ يهاجم العثمانيين وأطبق عليهم الخناق واتخذ من مسجد" شيخو" مركزاً لعملياته الحربية، واستمر القتال في شوارع القاهرة لمدة ثلاثة أيام ثم تقاعس عنة المماليك، حتى إذا ما ادرك استحالة النصر هرب إلى "البهنسا" في

---

(١) رافق: بلاد الشام ومصر،ص(١٠٢).

مصر الوسطى وكتب الى السلطان سليم يعلن استعدادة لان يحكم مصر كتابع له، واشتملت حاشية الرسالة على تهديد.لكن كبار المماليك عارضته وهاجموا سفراء السلطان سليم، فحنق السلطان وتحقق أن طومان باي لايريد إلا الحرب .

وتقابل طومان باي ومن معه مع العثمانيين عند" الجيزة " في (٩- نيسان- سنة ١٥١٧)، حيث تحقق نصر العثمانيين، وهرب طومان باي إلى اقليم البحيرة للاختفاء عند شيوخ عرب، فقام هؤلاء بأخبار السلطان سليم الذي أرسل فرقة من جيشه قبضت عليه وتم اعدامه في(٢٦ - ربيع الأول -٩٢٣هـ) الموافق(١٥١٧م) عند باب زويلة[١].

وبذلك عادت مصر الى النيابة كما كانت في صدر الاسلام، ثم امر السلطان سليم باصدار عفو عام عمن بقي من الجراكسة وابنائهم، ورتب للايتام والمشايخ والمقعدين مرتبات وعين عليها القائد "خير الدين اغا الانكشاري" والياً[٢].

وبهذه النهاية، أسدل الستار على حكم المماليك الجراكسة في مصر، وأصبحت خاضعة للحكم العثماني، الذي ورث السلطة المملوكية ومسؤولياتها في حماية الاماكن المقدسة في الحجاز.

أهم الاجراءات بعد فتح مصر

١- بعد اعدام طومان باي، اجتمع وزراء السلطان سليم في مدرسة السلطان "الغوري" وطلبوا كبار التجار، والوراقين، والبنائين، والمرقمين، والمبلطين...ثم نقلوا اصحاب الحرف هؤلاء واصحاب السلطان و معهم ألف جمل محملة مابين ذهب وفضة وسلاح ونحاس ورخام[٣].

٢- مبايعة الخليفة المتوكل للسلطان ثم نقله الى استنبول، حيث تمت اقامته الاجبارية في احد الحصون بعد ان سلم السلطان سليم شارات الخلافة وهي البردة النبوية، وبعض من شعر لحية النبي(ص)، وسيف الخليفة عمر بن الخطاب واستدل المؤرخون

---

(١))عمر بن عبد العزيز: محاضرات، ص(٧٣). رافق بلادالشام ،ص(١٠٧).

(٢) علي حسونة،ص(٥٨ . ٥٩).

(٣) عمر بن عبد العزيز: محاضرات ، ص(٧٣).رافق بلاد الشام، ص(١٠٧).

أن تسليم الخليفة العباسي للشارات انما هي دليل مادي بشأن صحة التنازل عن الخلافة [1] .

العوامل الرئيسية في انهيار الدولة المملوكية

هناك مجموعة من العوامل تجمعت وتسارعت في وضع نهاية لدولة المماليك اهمها:

١- عدم تطوير المماليك، اسلحتهم وفنونهم القتالية، فبينما كان المماليك يعتمدون على نظام الفروسية الذي كان سائداً في العصور الوسطى، كان العثمانيون يعتمدون على استخدام الاسلحة النارية وبخاصة المدفعية.

٢- كثرة الفتن والقلاقل والاضطربات بين المماليك حول ولاية الحكم مما أدى إلى عدم استقرار الحكم في أحرج الأوقات.

٣- كره الرعايا للسلاطين المماليك الذين كانوا يشكلون طبقة ارستقراطية مترفعة ومنعزلة عن الشعوب.

٤- وقوع بعض الخيانات بين صفوف المماليك، كما فعل والي حلب « خاير بك» وجانبرد الغزالي، مما أدى إلى سرعة انهيار الدولة المملوكية.

٥- سوء الأحوال الاقتصادية، وبخاصة عندما تغيرت طرق التجارة المارة بمصر واكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح.

خضوع الحجاز للعثمانيين

لاشك أن الحجاز مهمة للسلطان العثماني باعتبارة حامي حمى الاسلام، وقد سبق أن ارسل " بايزيد بعد معركة ديو "Diu " البحرية عام (١٥٠٩م) التي هزم فيها أسطول المماليك امدادات ضرورية سنة(١٥١١) لبناء ثلاثين مركبا حربيا [2]؛ والحجاز كانت تابعة للمماليك، وما ان وصلت أنباء مقتل الغوري وطومان باي الى شريف مكة:"بركات بن محمد

(١) علي حسونة،تاريخ الدولة العثمانية،ص(٥٨ ،٥٩).

(٢) ابن إياس بدئع الزهورجـ٣،(١١٦ ، ١٢٠ ، ١٢١).

بركات"(٩٠١-٩٣١هـ)(١٤٩٥-١٥٢٤م)حتى بادر الى تقديم الطاعة إلى السلطان سليم في مصر، فارسل ابنه"أبو نمي"والبالغ من العمر ثلاثة عشر عاماً في (٣ تموز ١٥١٧م)وسلمة مفاتيح الكعبة وبعض الآثار فأقر السلطان سليم شريف الحجاز بركات باعتباره اميراً على مكة والحجاز، ومنحه صلاحيات واسعه[١].

وإذا كان التفويض للشريف بركات قد قوى مركزه أمام خصومه، فقد جعل من السلطان سليم خادماً للحرمين الشريفين وجعل مكانته أقوى أمام الشعوب الاسلامية وبخاصة ان الدولة أوقفت اوقافاً كثيرة على الاماكن المقدسة، وكانت ايراداتها تصب في خزانة مستقلة بالقصر السلطاني[٢]. وقد أدى ضم الحجاز الى العثمانيين الى بسط السيادة العثمانية في البحر الاحمر مما ادى الى دفع الخطر البرتغالي عن الحجاز والبحر الأحمر واستمر هذا حتى نهاية القرن الثامن عشر.

اليمـــن:

كانت اليمن تابعة للمماليك، وعندما انهار النظام ا لملوكي في مصر، أرسل" اسكندر الجركسي" حاكم اليمن المملوكي وفداً الى السلطان سليم ليقدم فروض الولاء والطاعة له، فوافق السلطان العثماني على ابقائه في منصبه.

ولكن السيطرة العثمانية على اليمن كانت ضعيفة، ويعود ذلك إلى الصراعات الداخلية بين القادة المماليك إلى جانب ازدياد نفوذ الامامة الزيدية بين قبائل الجبال، هذا فضلا عن الخطر البرتغالي الذي كان يهدد السواحل اليمنية، وهذا دفع السلطان إلى ارسال قوة بحرية إلا انها فشلت بسبب النزاع الذي دب بين قائدها "حسين الرومي" متصرف جدة "والريس سلمان" احد قادة البحر العثمانيين[٣] لكن اليمن هي مفتاح البحر الاحمر ، وهي بالتالي التي تضمن سلامة الاماكن المقدسة في الحجاز، والسيطرة عليها للتحكم في البحر الأحمر، والعربي. لذلك تم ارسال حملة "سليمان باشا الارناؤطي" سنة(٩٤٥هـ-١٥٣٨م) .

(١) على حسونه: تاريخ الدولة العثمانية، ص (٥٨ . ٥٩).

(٢) ابراهيم خليل أحمد: تاريخ الوطن العربي، ص(٤٠).

(٣) غرايبه:مقدمة في تاريخ العرب الحديث، جـ١، ص (٣٠).

وقد ضمت الحملة (٧٤) سفينة و(٢٠) ألف شخص، وكان هدف الحملة احتلال اليمن وبخاصة عدن ثم اغلاق مضيق باب المندب أمام السفن البرتغالية وأحتل العثمانيون عدن عام(٩٤٦هـ-١٥٣٩م)،وتعز(٩٥٢هـ-١٥٤٥م)وسقطت صنعاء في قبضتهم عام(٩٥٤هـ-١٥٤٧م) وتحرك "سلمان باشا" باسطوله ليستولي على بعض الموانيء العربية في حضرموت ومنها " الشحر، والمكل " واجتاح "ساحل الحبشه، وسواكن، ومصوّع" على الجانب الغربي من البحر الأحمر عام (٩٦٤هـ- ١٥٥٧م).

وقد ظلت اليمن في فترة خضوعها للحكم العثماني(١٥٣٨- ١٦٣٥م) تتنازعها قوى العثمانيين والأئمة الزيدية، فالعثمانيون لم يستطيعوا أن يضمنوا سيطرة حقيقية على البلاد نتيجة لحركات المقاومة التي تواجههم[1].

واستفاد العثمانيون من وجودهم في اليمن فقاموا بحملات بحرية إلى الخليج العربي بقصد تخليصه من الضغط البرتغالي.

العـراق:

سيطر العثمانيون على شمال العراق: الموصل والمناطق المجاورة بعد انتصار السلطان سليم الأول على الصفويين في معركة "جالديران" (٢٢محرم سنة ٩٢٠هـ) الموافق (٩ آذار سنة ١٥١٤م).

وعين السلطان أحد قواده "فرهاد باشا" لإكمال احتلال الولايات المتاخمة للدول العثمانية، وكلف فرهاد باشا: بيقلي"محمد باشا" بالسيطرة على الموصل وأربيل وكركوك، فقام الاخير باحتلالها عام (١٥١٥)،غير ان الحكم العثماني في هذه المناطق ظل قلقاً بسبب الموقف السلبي الذي اتخذه السكان من العثمانيين أنذاك[2].

وبناء على الخطة الاستراتيجية العثمانية التي تقوم على عزل الصفويين عن الوطن العربي والتي لا تتم الا بإكمال الحصار البري والبحري ، والقضاء على كل احتمالات الاتصال

---

(١) ابراهيم خليل احمد:تاريخ الوطن العربي،ص(٤٢).

(٢) ابراهيم خليل أحمد تاريخ الوطن العربي في العهد العثماني، ص(٤٢).ابراهيم خليل احمدتاريخ الوطن العربي الحديث والمعاصر، ص (١٦).

بين الصفويين والبرتغال، ثم وضع حد للنفوذ البرتغالي في الخليج العربي، لذلك أعد السلطان سليم حملة لاحتلال العراق وطرد الصفويين لكن الموت عاجله سنة(١٥٢٠م) فقام ابنه السلطان "سليمان القانوني"(١٥٢٠- ١٥٦٦م) بتنفيذ الخطة القائمة على ضرب الدولة الصفوية في العراق للانطلاق نحو الخليج العربي.

استمال السلطان سليمان حاكم بغداد"ذو الفقار علي بيك" رئيس قبيلة الموصلو الكردية الذي عزل عمه" ابراهيم خان موصلو" واظهر ذوالفقار ولاءه للسلطان بعد وفاة "اسماعيل الصفوي ".

الا أن ابن اسماعيل الصفوي والمعروف "بالشاه طهماسب"، قام بهجوم على بغداد سنة (٩٣٦هـ- ١٥٣٠م) وتمكن من قتل حاكم بغداد "ذو الفقار" واعاد العراق إلى الصفويين لأهميتها الدينية التي تضم العتبات المقدسة للشيعة(١).

دفعت هذة الأحداث السلطان للاعتماد على نفسه، فطلب من الصدر الاعظم "الداماد ابراهيم باشا" أن يعد جيشاً ويسبقه الى حلب، ثم خر - ؛ا سلطان على رأس جيش من اسطنبول، فزحف ابراهيم باشا نحو تبريز عاصمة الشاه، فدخلها في اول محرم (٩٤١هـ- ١٣ تموز١٥٣٤م)وبقى فيها حتى لحق به السلطان، ثم توجه السلطان إلى بغداد بطريق همذان وكرمانشاه.

وقد تمكن السلطان أن يمنع كل مدد الى بغداد، مما جعل حاكم بغداد "محمد خان" التابع للصفويين يرى هزيمته المؤكدة فقام بالهرب الى فارس فدخل العثمانيون بقيادة السلطان بغداد بدون قتال يوم الاثنين (٢٤- جمادى الاول٩٤١هـ) الموافق(كانون أول ١٥٣٤م)، فقضى السلطان سليمان الشتاء فيها ثم غادرها في الربيع عائداً عن طريق تبريز الى اسطنبول وعين عليها "سليمان باشا المجري" والي ديار بكر سابقا(٢)، عمل خلالها على طمانينة السكان وتحقيق الاستقرار وتنظيم الادارة والضرائب.

---

(١) غرايبة: مقدمة تاريخ العرب الحديث جـ١، ص(٢٨).

(٢) غرايبة: مقدمة في تاريخ العرب الحديث، جـ١، ص(٢٩)،عمر بن عبد العزيز محاضرات في تاريخ الشعوب الاسلامية، ص(٨٣).

ضم وسط العراق الى شماله:

ثم أرسل السلطان سليمان: "محمد باشا الموصول" لتثبيت الحكم العثماني المباشر عليها، ووافق على تعيين" الشيخ راشد بن مغامس المنتفقي" أمير البصرة العربي أميراً عليها ثانية على ان يكون الشيخ راشد تابعاً لباشا بغداد، ولم يستمر راشد على ولائه، فقد أيد ثورة القبائل على السلطان في عهد حاكم بغداد الثاني "اياس باشا"في (صفر-٩٤٨هـ) - (أيار-١٥٤١م).

وقاد إياس باشا حملة على البصرة في شعبان (٩٥٣ الموافق ٢٩ تشرين أول سنة ١٥٤٦م) احتلت القرنة وهزمت اسطول البصرة النهري واحرقته، وفشل البرتغاليون في محاولتهم مساعدة راشد الذي فر إلى الحسا، وبذلك دخل والي البصرة (في٢١ شوال ٩٥٣هـ) الموافق (١٥ كانون الأول ١٥٤٦م)، ونظم حكومتها حسب الادارة العثمانية، وأصبح "إياس باشا الصفوي" اول والٍ عثماني على البصرة[1].

ولم يقض الفتح العثماني للعراق نهائياً على النزاع الصفوي العثماني، فقد تمكن الصفويين من الاستيلاء على بغداد عام(١٦٠٢م)، إلا أن ذلك لم يستمر طويلاً فأعاد السلطان "مراد الرابع "(١٦٢٣- ١٦٤٠م) فتح العراق عام (١٦٣٨م)، وبذلك بقي العراق تحت الحكم العثماني حتى الحرب العالمية الاولى[2].

الصراع العثماني البرتغالي في الخليج العربي

بعد أن تأكدت السيطرة العثمانية على جنوب العراق، أصبحت البصرة القاعدة البحرية الثانية بعد السويس في سبيل الصراع العثماني والحتمي مع البرتغاليين وبخاصة عندما أعلن أهالي القطيف ولاءهم للعثمانيين، فقام السلطان العثماني(٩٥٨هـ-١٥٥١م) بارسال قائد البحر "بيري بك" على راس اسطول من ثلاثين سفينة و (١٦٠٠٠) جندي لاحتلال عدن، وقد واصل العثمانيون جهودهم في تركيز سطوتهم في الخليج العربي والسعي لكسر الطوق البرتغالي على

(١) ابراهيم خليل أحمد: تاريخ الوطن العربي،ص(٤٤)،غرايبة: المرجع السابق،ص(٢٩).

(٢) عمر بن عبد العزيز: محاضرات، ص(٨٥).

التجارة، واسندت قيادة الاسطول العثماني في مصر (٩٦٠هـ-١٥٥٣م) الى "سيدي على" الذي اصطدم باسطول برتغالي قوي عند هرمز، وقد فشل الاسطول العثماني في تحقيق أهدافه[1].

وارسلت إلى الخليج العربي بضع حملات عثمانية، ولم تستطع تلك الحملات سوى احتلال مؤقت للبحرين (٩٦٧هـ- ١٥٥٩م)، ولسقط (٩٨٩هـ- ١٥٨١م)وفي كلتا الحالتين أجبر الاسطول البرتغالى الاسطول العثماني على الانسحاب.

وقامت دولة اليعاربة في عُمان سنة (١٠٣٢ه- ١٦٢٤م)، وتولّت هذة الدولة مسؤولية الصراع مع البرتغاليين، ونجحت في عهد حكامها الاوائل وبخاصة "ناصر بن مرشد " (١٠٥٦-١٠٨١هـ)-(١٦٢٤-١٦٤٩م)"وسلطان بن سيف"(١٠٥٧-١٠٨٦هـ)-(١٦٤٩-١٦٦٨م) في القيام بحركة تحرير شملت الخليج العربي وسواحل الجزيرة العربية وقد تمكن العثمانيون من تدمير آخر معقل للبرتغاليين سنة(١١١٣هـ- ١٦٩٥م)الا وهو ميناء" كنجان "الصغير على الشاطئ الشرقي للخليج العربي[2].

ولعل عدم نجاح العثمانيين في كفاحهم ضد البرتغاليين يعزى الى أسباب عدة فيمكن أن يعزى لعدم كفاءة بعض القادة البحريين، وقيام بعض القادة باعمال تعسفية ازاء السكان العرب بالرغم من تعاونهم، هذا بالاضافة إلى أن الاسطول العثماني(في القرن السادس عشر) كان مؤلفا من سفن صغيرة غير قادرة على التأثير الفعال ضد السفن المحيطية الكبيرة، كما لاننسى صعوبة تجهيز وابقاء اسطول عثماني يكفي لمواجهة الاساطيل الأوروبية، وأخيراً انشغال الدولة العثمانية في هذة الفترة بالحروب البرية ضد الصفويين والامبراطورية الرومانية المقدسة ومهما يكن من أمر فإن من نتائج الصراع العثماني البرتغالي:

١- احتفظ العثمانيون بالاماكن المقدسة الاسلامية وطريق الحج.

٢- حماية الحدود البرية من هجمات البرتغاليين طيلة القرن السادس عشر.

٣- استمرار الطرق التجارية التي تربط الهند واندونيسيا بالشرق الادنى عبر الخليج

---

(١)) غرايبة: مقدمة في تاريخ العرب الحديث جـ١، ص(٣٣).

(٢) ابراهيم خليل احمد: تاريخ الوطن العربي الحديث والمعاصر، ص(١٦).

العربي والبحر الأحمر.

٤- استمرار عمليات تبادل البضائع الهندية مع تجار أوروبا في اسواق حلب، والقاهرة واسطنبول ففي سنة (١٥٥٤) اشترى البندقيون وحدهم ستة آلاف قنطار من التوابل وفي الوقت نفسة كانت تصل الى ميناء جدة عشرين سفينة محملة بالبضائع الهندية (توابل ،أصباغ، أنسجة) [1].

خضوع المغرب العربي لسلطة العثمانيين

لم يكتف الاسبان بالقضاء على الوجود العربي في الاندلس (١٤٩٢م)وانما هدفوا إلى مطاردة العرب في شمال افريقيا والوصول إلى مصادر ثرواتهم الاسلامية والمتمثلة باحتكار التجارة[2] والقضاء على الاسلام في عقر داره.

وإذا كان أمر مسلمي الاندلس قد انتهى بهزيمتهم وسيطرة البرتغاليين والاسبان، فقد كانت هذة الهزيمة نقطة تحول خطيرة في تاريخ العرب والمسلمين من جهة والاسبان والبرتغاليين من جهة اخرى فقد تحول الصراع الى صراع ديني اتخذ شكل الحروب الصليبية بين الطرفين. فقد كانت الوحدة القومية في شبة الجزيرة الايبرية (اسبانيا والبرتغال) متخذة الصبغة الكاثوليكية بزواج" فرديناند وايزابيلا"[3].

اتخذت هذه الحرب مظهر الحرب البحرية، فتعقب الاسبان سفن العرب الاندلسيين المتوجهة الى المغرب العربي، وهاجموا الموانئ والمراسي، ووقف عرب شمال افريقيا موقف الدفاع عن سفن المهاجرين وبالتالى عن سفنهم وأساطيلهم، واستمرت هجرة عرب اسبانيا حتى طرد آخر فوج عام (١٠١٨هـ - ١٦١٠م) ، وفي هذا العام نزل ثمانون الف من مسلمي اسبانيا بموانئ شمال افريقيا، وقد شاهد هؤلاء حقد المسيحيين نحوهم مما دفعهم إلى الجهاد بكل وسائله براً وبحراً إلا ان طابع هذه الحركة لم يكن نظامياً بمعنى أنه لم تكن هناك دولة تقوم به وانما تجمع للمهاجرين المطرودين من اراضيهم. وقد كانوا مسوقين إلى تبني

---

(١) ابراهيم خليل أحمد: تاريخ الوطن العربي، ص (٥٦).

(٢) ابراهيم خليل احمد: تاريخ الوطن العربي الحديث والمعاصر، ص(١٧).

(٣) ابراهيم خليل احمد: تاريخ الوطن العربي في العهد العثماني،(٤٦).

مسألة الجهاد البحري باعتباره الحتمية الالزامية لتلك الفترة في المغرب العربي ، بينما اتخذ الهجوم الأوروبي صورة الدولة الموجهة والمخططة له وبخاصة أن الأوضاع السياسية والاقتصادية في المغرب العربي قد وصلت من التفكك والتدهور ما شجع الأطماع الاستعمارية الاسبانية والبرتغالية. فاحتل الاسبان مرفأ "عنابه" (٨٦٩هـ- ١٤٦٣م)، ومدينة "المرسى الكبير" في غربي الجزائر من (٩١١هـ-١٥٠٥م) ومدينة "وهران" (٩١٥هـ-١٥٠٩)، "وبجاية" (٩١٦هـ-١٥١٠م) "وطرابلس" (١٥١٠م)"والجزائر" (٩١٨هـ-١٥١١م) وعاصرت هذه الحملات مشروعات الدولة العثمانية بزعامة السلطان" سليم" في هذه المنطقة الذي اخذ على عاتقة مهمة بناء قوة بحرية تتولى انتزاع السيادة البحرية من الدول الاوروبية في حوض البحر المتوسط، فظهرت حركة عامة بين قادة البحر المغاربة تستهدف العمل على حماية موانئهم وسواحلهم من الأطماع الأوروبية والعمل على تأمين وصول المهاجرين العرب من الاندلس[1].

وكان من ابرز قادة الحركة العامة المغربية المغربيان "عروج بن يعقوب واخيه خير الدين المعروف باربروس" (اي اللحية الشقراء)، اللذان كانا يمتلكان اسطولاً قوياً في البحر المتوسط، وكان عروج يتولى منذ (٩١٦هـ - ١٥١٠م) إدارة جزيرة "جربة"[2]. بموافقة سلطان تونس "أبوعبدالله محمد بن الحسن الحفصي" (١٤٩٤هـ- ١٥٢٦م)،مقابل أن يدفع للسلطان خمس الغنائم التي يحصل عليها من غاراته على السفن الاوروبية واتجهت انظار عرب المغرب إلى الأخوين: عروج وخير الدين لانقاذهما من النير الاستعماري، فاستنجدت مدينة "بجاية" بهما لتحريرهامن الاسبان.

لبى الأخوان الدعوة ولكنهما اخفقا في تحريرها، فأحسا بضرورة البحث عن قاعدة جديدة لنشاطهما، فوقع اختيارهما على ميناء "جيجل" الجزائري[3]، وقد تمكنا من تحريره وجعله مركزاً لنشاطهما. ثم قام عروج وأرسل جزءاً من الغنائم للسلطان "سليم الأول"، وشرح له طبيعة المخاطر التي يتعرض لها المغرب وتهدد عروبته واسلامه، فبعث السلطان الى عروج اسطولاً مؤلفاً من(١٤) سفينة مع امدادات من الرجال والسلاح والذخيرة، ، وقد زاد

---

(١) ابراهيم خليل أحمد: تاريخ الوطن العربي في العهد العثماني ،ص(٤٧).

(٢) جربة : جزيرة صغيرة تقع في خليج قابس شرقي تونس.

(٣) تقع جيجل غربي بجاية بمسافة (١٠٢)كم.

هذا الدعم امكانات وطموح عروج، فحاول ثانية احتلال بجاية في آب (١٥١٤م) واستعان بقوة قبيلة "كتامة" فزودوه بعشرين ألف مقاتل إلا أنه فشل في ذلك فعاد بعد ثلاثة أشهر الى مقره في جيجل.

تسلم عروج بضعة رسائل استغاثة من بعض أهالى الجزائر وتضمنت رسالة الشيخ العالم الفقيه" ابو العباس بن احمد قاضي الزواوي" « إن بلادنا بقيت لك أو لاخيك أو للذئب» وجه عروج جهوده نحو تحرير ميناء الجزائر، وقد أدرك أن نجاحه في تحرير ميناء الجزائر سيجعله قادراً على انقاذ سائر المدن التي ترزح تحت النير الاسباني كما أن السيطرة على الجزائر خطوة على طريق تأسيس حكومة جديدة.

اتصل عروج باخيه خير الدين الذي كان في تونس وطلب منه تجنيد المتطوعين الراغبين في القتال، والتوجه بهم بحراً للمساهمة في هذه الحملة.

خرج خير الدين على راس قوة بحرية مؤلفة من(٢١) سفينة و(١٥٠٠) مقاتل ، وغادر عروج جيجل ومعه قوة برية مؤلفة من(٨٠٠) مقاتل وجند القبائل الجزائرية حتى بلغ عدد أفرادها (٥٠٠) مقاتل.

نجح الأخوان في تحطيم القوات الاسبانية، وتم تحرير ميناء الجزائر في اواسط سنة(١٥١٦م)، ثم تقدم نحو "تلمسان"[1].

أدرك الإسبان أثر قوة عروج باعتبارها تشكل تهديداً لوجودهم الاستعماري، فأصدر الملك "شارل الخامس" أمراً الى حا كم وهران الاسباني بالتقدم نحو تلمسان واجلاء القوات العربية بقيادة عروج وقد نجحت القوات الاسبانية في محاصرة عروج بين وهران وتلمسان وقتله سنة (١٥١٨م)[2]. ادرك خير الدين باربروسا ضعف موقعه السياسي، وضآلة امكانياته العسكرية فأرسل وفداً إلى اسطنبول يرأسه قاضي الجزائر "ابوالعباس بن احمد بن قاضي الزواوي" يطلب الدعم والمساعدة للوقوف أمام الاسبان، فأرسل السلطان سنة(١٥١٨م) قوة من الانكشارية قوامها ستة آلاف رجل بمدافعهم وعتادهم، ومنح "خير الدين

(١) ابراهيم خليل أحمد: تاريخ الوطن العربي، ص(٤٩).

(٢) جلال يحى: العالم العربي الحديث (المدخل) ، ص (٣٧).

لقب باشا" ورتبة بكلربكي"[1].

وفي(٢٧ أيار سنة ١٥٢٩م)، نجح خير الدين في احتلاله قلعة "البينون Penon" التي تبعد عن الجزائر (٣٠٠م) والتي تسلط مدفعيتها على المدينة، وبذلك ضمن أمن مدينة الجزائر. وعندما تولى السلطان سليمان بعد أبيه، استدعى خير الدين باربروسا لوضع خطة يتم بموجبها ايقاف الزحف الأوروبي، ثم العمل على تثبيت أقدام العثمانيين في الجزء الغربي لشمال افريقيا.

أعاد خير الدين بناء الأسطول، ثم اغتنم فرصة نشوب ثورة في تونس ضد حاكمها " أبو محمد الحسن الحفصي"حليف الاسبان، فاستعد لاقتحام تونس، ولكن الحسن استنجد بالاسبان الذين هرعوا الى تجميع اسطولهم في حزيران عام(٩٤١هـ – ١٥٣٥م)واصطدموا مع قوات خير الدين ومحاصرتها مما اضطر خير الدين للانسحاب الى ميناء "عنابة" ثم الى ميناء الجزائر، واحتل الاسبان تونس في٢١ تموز (١٥٣٥ واعادوا الحسن الى عرشه بعد أن عقدوا معه اتفاقاً ضمن مصالحهم، ثم اخذ الاسبان في الانتقام من التونسيين الذين انضموا لخير الدين فقتلوا قرابة ستين ألفا مما جعل الانتفاضات الشعبية تنتشر في كل مكان مما اضطر السلطان، "الحفصي الى الفرار فجاء ابنه" ابو العباس أحمد" والي عنابة وتولى الحكم.

حاول الاسبان احتلال جزيرة "جربه" سنة (٩٦٦هـ–١٥٦٠م) فاصطدموا مع الاسطول العثماني الذي تمكن من دحرهم، ووقع الكونت "سيكالا" أسيراً فأسلم وحسن اسلامه وعرف باسم "سنان باشا" الذي أصبح له دور كبير في قيادة الاسطول العثماني وتحرير تونس من السيطرة الاسبانية عام (٩٨٢هـ–١٥٧٤م)[2]، ومنذ ذلك الوقت غدت تونس ولاية عثمانية.

أما ليبيا:

فتقسم إلى قسمين اقليم" برقة" واقليم "طرابلس".

فأقليم "برقة" كان تحت الحكم العثماني منذ استيلاء العثمانيين على مصر. كما أعلن

---

(١) غرايبة مقدمة في تاريخ العرب الحديث،جـ١ ،ص (٣٩). علي حسونة: تاريخ الدولة العثمانية ، ص (٦١).

(٢) ابراهيم خليل أحمد: تاريخ الوطن العربي، ص (٥١).غرايبة: مقدمة في تاريخ العرب الحديث، جـ١، ص(٣٦)

.حكام اقليم "فزان" من أسرة "بني محمد" ولاءهم للعثمانيين[1] . أما اقليم طرابلس، فقد احتل الاسبان ميناء طرابلس عام (٩١٥هـ-١٥١٠م) .

وسلم ملك الاسبان "شارل الخامس" في سنة (١٥٣٥) طرابلس الى فرسان القديس يوحنا بعد ان أخرجهم السلطان سليمان من رودوس بشرط الدفاع عن الميناء ضد العرب، كما تم تسليم "مالطه" لهم لتكون قاعدة لغزو الوطن العربي[2].

وضع "خيرالدين" خطة للاستيلاء على طرابلس منذ تولى قيادة الاسطول العثماني عام (١٥٣٣) لكن التدخل الاسباني عام (١٥٣٥م) أفشل خطته، وتمكن خيرالدين في شعبان (٩٥٨هـ-١٥٥١م) من ضم المدينة ومنذ ذلك الوقت أصبحت ولاية عثمانية، واصبحت قاعدة من قواعد الجهاد الاسلامي في شمال افريقيا[3].

تولى ليبيا عدد من الولاة العثمانيين وكان "دارغوث باشا" من اشهرهم، فقد وسع السيطرة العثمانية لتشمل السواحل الليبية بكاملها كما استولى على مدن تونس الشرقية والجنوبية مثل "صفاقس والقيروان" على ان اهتمام العثمانيين بليبيا كان عسكرياً بالدرجة الاولى، فاقتصر نفوذهم على المدن الساحلية[4].

المغرب العربي الاقصى

استولى" بنو مرين" من عرب "زناته" على مراكش بعد أن قضوا على الموحدين عام (٦٦٨هـ-١٢٦٩م)، وتمكن الاسبان من انتزاع الجزيرة الخضراء من سلطان بني مرين إلا أن العرب استعادوا الجزيرة عام (٧٧٠هـ-١٣٦٨م) ثم قاموا بتخريبها لمعرفتهم باستحالة احتفاظهم بها وفي (٢٢محرم ٨٩٧هـ)-(٥ كانون أول ١٤٩١م) .انتزع الاسبان "سبتة وطنجه" ولم يتمكن بنو مرين من انجاد غرناطة التي استسلمت للاسبان ودخلوها (٢٢ربيع أول ٨٩٧هـ)- (١٣ كانون الثاني ١٤٩٢م) ، ولجأ آخر ملوك غرناطة (أبوعبد الله محمد) الى" بلاط

---

(١) عمر عبد العزيز : محاضرات في تاريخ الشعوب ،(١١٠).

(٢) غرايبة: مقدمة في تاريخ العرب الحديث، جـ١، ص (٣٧).

(٣) عمر عبد العزيز عمر: محاضرات في تاريخ الشعوب الاسلامية، ص(١٠٢) .

(٤) ابراهيم خليل أحمد: تاريخ الوطن العربي، ص(٥٢) جلال يحي: العالم العربي الحديث، ص (٣٩).

بني مرين"، وقتل دفاعا عنهم (٩٤٠هـ-١٥٣٦م). وقتل اخر ملوك بني مرين المسمى "محمد الحاج بن ابي بكر" (٩١٦- ٩٥٧هـ)-(١٥١٠- ١٥٥٠م) وتولى " محمد بن عبد الرحمن" الشريف السعدي العلوي (٩٧٢هـ-١٥٦٤م) الذي أسس العائلة السعدية التي حكمت مراكش قرابة قرن من الزمن[1].

وقامت حفنة من رؤساء البر المغاربة تكافح مع حركة الجهاد البحري، وتعاونت مع رؤساء البحر الجزائريين، وساعدت الظروف على ظهور قيادة جديدة للنزول الى المعركة وللدفاع عن البلاد وقد شملت هذه القوة "القوة البرية بجانب القوة البحرية" وظهرت في جنوب المغرب في "وادي السوس" قيادة جديدة تهيأت لها ظروف مناسبة لتحرير البلاد من المحتلين الأجانب، وقد تمكن المولى "محمد بن عبد الرحمن" وهو العربي الشريف نسباً من توحيد الصفوف، وكون الأسرة السعدية الحاكمة. وقد تمكنت قيادة السعديين أن تتوسع من الداخل صوب الخارج كما ثبتت أقدامها في البحر على الساحل وعملت قيادة الاشراف على التوسع صوب الشرق، وقد كان المغرب الاقصى هو القطر الوحيد الذي لم يتحد مع بقية الاقاليم العربية والاسلامية. وعمل على الدخول في قوقعة واقفال موانئه في وجه الأجانب وعاش في عزلة محتفظا بجزء هام من تراث العروبة والاسلام[2].

لقد ظلت مراكش بعيدة عن متناول العثمانيين وحكمهم المباشر، وذلك بسبب تنامي قوة الدولة السعدية الناشئة منذ منتصف القرن السادس عشر، فقد بذل القادة العثمانيون ومنهم "علي العلج ، بكبلربكجي الجزائر" منذ (١٥٦٨م) جهوداً كبيرة لاخضاع المغرب إلا إن ذلك لم يتحقق بسبب انتصار المغاربة على البرتغاليين في معركة"وادي المخازن" عام (٩٨٥هـ-١٩٧٨م) مما جعل هؤلاء المغاربة محط تقدير واعجاب السلطان العثماني فأوقف الحملات ضدهم. هذا بالاضافة الى ظهور شخصيات قوية حاكمة للمغرب مثل" المنصور السعدي" الذي سعى للمحافظة على استقلال مراكش وعدم الخضوع للسيطرة العثمانية[3] .

---

(١)) غرايبة: مقدمة تاريخ العرب الحديث، جـ١، ص (٣٥-٣٦).

(٢) جلال يحي: العالم العربي، ص (٤٧).

(٣)ابراهيم خليل احمد: تاريخ الوطن العربي في العهد العثماني،(٥٢).

نتائج ضم العثمانيين للوطن العربي

لاشك أن ضم العثمانيين للوطن العربي اكسب الدولة مظهراً سياسياً ودولياً كبيراً كما أدى الى مجموعة من النتائج الايجابية والسلبية بالنسبة للوطن العربي، ومن هنا يمكن القول ان النتائج تختلف بالنسبة للعثمانيين عنها بالنسبة للوطن العربي.

أ- النتائج بالنسبة للعثمانيين:

١- ضمت الدولة العثمانية الوطن العربي إلى جانب الأقاليم الأوروبية التي يدين سكانها بالمسيحية ، وأصبح العرب المسلمون يشكلون نسبة كبيرة من السكان، مما جعل للدولة سياسة اسلامية مما اوجد تناقضاً بين سياسة الدولة وعقيدة بعض سكانه الذين اخذوا يظهرون التمرد والثورة ، واخذت الدول الاوروبية المسيحية في التدخل لدى الدولة العثمانية لدعمهم وحمايتهم مما أوجد لها مشاكل ترتبط بذلك.

٢- اصبحت الدولة العثمانية امبراطورية واسعة الأرجاء تمتد في قارات ثلاث مما اوجد لها اعداء كثيرين في اوروبا: النمسا، اسبانيا، البرتغال وهذا ادى إلى الاحتكاك والاصطدام بينها وبين هذه القوى المعادية

٣- أصبح البحر الأسود بحيرة عثمانية ، كما سيطر العثمانيون في زمن "سليمان القانوني" على غرب البحر المتوسط، فكان العثمانيون سادة البحر.

٤- استعمل العثمانيون الثقافة العربية الاسلامية باعتبارهم مسلمين فجعلوا الحرف العربي الأساس في كتاباتهم، واتخذوا العلوم الشرعية في الاسلام الاساس الذي سارت علية الدولة فكانت الخلافة الاسلامية وماتقتضية من الارتباط بالدين والتمثل به.

ب- النتائج بالنسبة الى العرب:

١- وحد العثمانيون الوطن العربي بعد ان كان دويلات متفرقة، وحمى الوطن العربي من الحملات الصليبية والاستعمار حوالى أربعة قرون.

٢- حافظ العثمانيون على المذهب السني في الوطن العربي.

٣- انقذ الحكم العثماني العراق من الصفويين، وحافظوا علية عربياً وسنياً.

٤- أصبحت اللغة العربية هي الثانية رسمياً بعد ان كانت الاولى.

٥- انتقل مركز الثقل الاقتصادي والثقافي والسياسي الى خارج الوطن العربي إلى تركيا، مما ادى الى تخلف الوطن العربي، وفقدان الكثير من النواحي العلمية والثقافية.

ثانياً:نظام الحكم العثماني في الوطن العربي

تمهيد:تميزت الدولة العثمانية بعدة مميزات:

الدولة العثمانية دولة اسلامية: فقد كان يحكم الدولة سلطان، ثم أصبح خليفة يحكم وفق الشريعة الاسلامية، انعقدت لة بيعة أكثر المسلمين السنيين، وهو حامي الشريعة الذائد عن دار الاسلام وخادم الحرمين الشريفين[١].

وقد تمتع العرب والمسلمون بجميع الحقوق. فالمسلم تمتع بحقوقه الشرعية وفرضت عليه واجبات مساوية، والعربي المسيحي طبق عليه وضع أي مسيحي آخر من رعايا السلطان، وعاش الجميع في ظل قوانين شرعية مستمدة من الشرع.[٢]

واطاع المسلمون والعرب السلطان، واعتبر الخروج عليه إثارة للفتنة وخروجاً على اجماع الأمة، وغدا السلطان إماماً، واعتبر المسلمون باختلاف أجناسهم الدولة العثمانية دولة اسلامية لادولة تركية، وتمنوا للسلطان وجيشه النصر على العدو، ولم يكن الفارق الجنسي او اللغوي بينهم وبين الحكام ذا قيمة في المدن العربية التي كانت أشد ولاء للسلطان من الريف والبادية[٣] ولذلك كان اكثر الناس ولاءً وتعلقاً بالدولة وحباً للنظام والاستقرار وكرهاً للثورة والفتنة هم رجال الدين الذين رأوا في السلطان أكبر قوةً قادرة على حماية دار الاسلام.

لقد اعطى هذا الوضع الشرعي قوة للسلطان لم يحلم بمثلها حاكم مما جعل الثوار لا

---

(١) GIBB:ISLAMMC SOCIOTY THE WEST, VOL,P,(27,28,35)

(٢) غرايبة : مقدمة تاريخ العرب الحديث جـ١ ، ص (٤٨)

(٣) GIBB, P(28,32)

يستطيعون تحمل تهمة الخروج على" أهل السنة والجماعة" اي السلطان وانما حرصوا على الادعاء بالخروج على الولاة ومظهرين الولاء للسلطان [1].

وقد حرصت الدولة العثمانية الاسلامية على تطبيق الشريعة الإسلامية، فكانت دولة معاهدة، فقامت بما تمليه الشريعة من الجهاد والفتوح، وقامت ببناء المساجد في جميع انحاء الدولة. وحرصت على أداء فريضة الحج وتأمين ما يحتاجه الحرمان من كسوة وخدمة .

واقتضى الجهاد توفر جيش كبير وموارد مالية كبيرة من الدولة، فسخرت الدولة معظم موارد الدولة لخدمته، وكان الجيش هو عماد الدولة في الفتوحات كذلك في اشغال المناصب الادارية فيها .

واقتضى شغل قادة الجيش في المناصب الادارية الى منحهم الأراضي الزراعية وترتب على ذلك تجنيد الرجال للحرب وقت الحاجة وجمع الأموال أي امداد الدولة بالمحاربين والمال الذي تحتاجة الفتوحات.

أما بشأن التقسيمات الادارية، فقد أبقى العثمانيون على التقسيمات القديمة، فلم يدخلوا عليها غير تعديلات بسيطة اقتضتها ضرورة الأمن ضمن نطاق ضيق في الأحوال الشاذة [2]

وهناك سؤال هل كان الحكم العثماني للبلاد العربية حكما استعماريا خارجياً ؟

ويجيب على هذا السؤال الباحث الدكتور "عبد الكريم غرايبة" بالنفي« لم يكن الحكم العثماني للبلاد العربية استعماراً خارجياً» [3] لان المسلم العربي تمتع بجميع حقوقه الاسلامية، وعاش في ظل القوانيين الشرعية، وفرضت عليه الواجبات التي يقتضيها الدين الحنيف.

التقسيمات الادارية

انقسمت الدولة العثمانية إلى عدد من الوحدات الادارية الاقطاعية عرفت بالالوية "السناجق" وكان على راس كل ولاية امير لواء " سنجق بك" وحول كل امير رفع علم «لواء

---

(١) غرايبة: ص(٤٩) .

(٢) GIBB VOLP.P (200,210,211).

(٣) غرايبة: مقدمة تاريخ العرب الحديث، جـ١ ، ص(٤٧).

سنجق» بصفته ممثل السلطان.

بلغ مجموع ولايات الدولة تسع وثلاثين ولاية، بلغ مجموع الولايات العربية اثني عشر ولاية في القرن التاسع عشر هي: الحجاز، بيروت، اليمن، البصرة، بغداد، الموصل، حلب، سوريا" دمشق" الجزائر، طرابلس الغرب، تونس، مصر،.أما المتصرفيات فهي: القدس، بنغازي، دير الزور، جبل لبنان، وترتبط هذه الولايات والمتصرفيات بالعاصمة اسطنبول .

وانقسمت في هذا القرن الولايات إلى الوية(سناجق)، وانقسم اللواء الى أقضية، والقضاء إلى نواحي، والحاكم الاعلى في كل ولاية" باشا"، وفي كل لواء "متصرف"، وفي القضاء "قائم مقام"، وفي كل ناحية "مدير ناحية" [1]

وجزئت بعض الولايات لخلق ولايات جديدة كما هو الحال في ولاية صيدا (١٠٧٣-١٦٦٣م).

كما خلت بعض الولايات الكبيرة من التقسيمات، فكانت اليمن ومصر كل منها ولاية وكذلك الحجاز ثم أنشئت ولاية جديدة فيما بعد هي ولاية "جدة" مفصولة عن" الحبشة" [2] وحافظت الدولة على الاوضاع التاريخية القديمة والعائلات الحاكمة ولاسيما في لبنان وشمال العراق، كما اعترفت بشيوخ العشائر البدوية امراء على عشائرهم، فكانوا يتمتعون بقسط كبير من الاستقلال .

وتمتع" شريف مكة والامام الزيدي" في اليمن باستقلال ذاتي وصلاحيات واسعة، وبخاصة شريف مكة الذي كانت رتبته مساوية لرتبة الصدر الأعظم [3]"رئيس الوزراء".

واقتصرت واجبات الدولة على تنظيم استثمار الثروة واتخاذ الاجراءات اللازمة لزيادتها وحمايتها باعتبار انها تعود الى السلطان ثم حفظ النظام وحماية الدولة من الخطر الخارجي بوساطة الجيش [4].

---

(١) جلال يحي: العالم العربي الحديث، المدخل ،ص(٥٦). ابراهيم خليل أحمد: تاريخ الوطن العربي، ص(٦٩).

(٢) غرايبة: مقدمة،ص(٥٠).

(٤) ابراهيم خليل: تاريخ الوطن العربي، ص(٧٠).

الوالي- أمير اللواء

هو ممثل السلطان في الاقليم، لان السلطان هو الذي يعينه، ولقب الوالي رسمياً (بالباشا)، وكان السلطان يعينه لمدة عام قابل للتجديد، وهذا أدى بالولاة الى ان يحرصوا على جمع ما يمكنهم جمعه من الأموال في هذه الفترة القصيرة، كما ادى بهم إلى الانصراف عن المشروعات العمرانية والانتاجية التي تتطلب فترة زمنية[1].

واكثرت السلطات العثمانية من تغيير الولاة، فحكم بعض الولاة أقل من شهر، فقد حكم الشام خلال القرن الأول (٩٢٢- ١٠٠٠هـ)- ١٥١٦- ١٥٩١م) "ست واربعين" والياً ثلاثة منهم حكموا ثلث المدة. وحكم مصر في نفس الفترة" سبع وعشرون" والياً ،منهم اثنان ثلث المدة، وحكم حلب في فترة قرنين" ست وسبعون" والياً[2]

وكان الوالي يتسلم مرتبا سنويا (سالیانه) يقتطعه من الأموال التي يجمعها من ولايته، ويجمع الوالي بين السلطتين: المدنية والعسكرية، وقد يتولى جمع الضرائب والرسوم في ولايته، ويعمل الى جانب الوالي عدد من الموظفين يسمون "أركان الولاية": نائبه "الكتخدا" مسؤول عن الامن،" الدفتردار" عن المالية وهذا يعينه الوالي،" المكتوبجي" مسؤول عن تحريرات الولاية،" الخازن دار" امين الخزانه، "أغا الانكشارية" وهو قائد الحامية العسكرية ، ويعينه السلطان أما الأمور القضائية فتسند الى" القاضي" الذي يعينة قاضي الاسلام في اسطنبول، وبفرمان من السلطان، وكان للقاضي نواب في سائر انحاء الولاية[3]

وتمتع الوالي باحترام كبير بحكم منصبه كممثل للسلطان، يشارك في موكبه كبار رجالات البلد وقادة الجند، كما اعتبر الوالي رئيساً للسلطة التنفيذية مع ممارسة حق الاشراف المطلق على الشؤون الادارية والاقطاعية بالاضافة الى بعض الصلاحيات القضائية والعسكرية.

وكانت مهمة الوالي الرئيسة هي ضمان استمرار الولاية في ولائها للسلطان، وتامين الأمن والعدل للمواطنين. فكان يفرض عقوبات فورية بقتل أو شنق بعض الاشقياء،

---

(١) جلال يحي: العالم العربي الحديث(المدخل١) ص(٥٨).

(٢) غرايبة: ص (٥٧)

(٣) ابراهيم خليل: ص(٧١

وقد يتدخل في تحديد الاسعار وتامين الغذاء .

وهناك نقباء الاشراف في عواصم الولايات والمدن العربية، "والاشراف" هم الذين يعودون بنسبهم الى الرسول (ص) ومعظمهم من الأسر العربية[1] وكان هؤلاء الزعماء في مدنهم يقومون بدور الوسيط بين الحكام والسكان المحليين كما حاول الأشراف – في بعض الأحيان أن يحدوا من جماح سلطة الوالى باعتبار أن لديهم القدرة على تعبئة الرأي العام وتجنيده لما لهم من تاثير ونفوذ عن طريق الروابط المتصلة بينهم وبين أصحاب الوظائف الدينية وتركت ادارة العشائر لشيوخها حسب عرفها وتقاليدها العشائرية، ولعل ذلك ناتج عن عجز الدولة من أن تبسط الحكم القوي والفعال في ولاياتها[2]

ديوان الولاية -الوالي

كان في كل ولاية ديوان رئيسي يتبع إلى الوالى يجتمع عادة في المحكمة، ثم يذهب اعضاؤه الى دار الولاية لعقد اجتماعهم صباح الجمعة لبحث شؤون الولاية برئاسة الوالى ويضم: الدفتردار، والقاضي ونقيب الاشراف، ونقيب التجار (الشهبندر) وعدداً من أعيان البلد، وبعد الانتهاء من البحث يسير الوالى في موكب رسمي لأداء صلاة الجمعه، وكان يرسل مذكرة سنوية الى اسطنبول عن الاعمال والمداولات التي تمت في الديوان.

الادارة المالية

تكونت الادارة المالية في البلاد العربية من عدة دواوين أبرزها:

أ- **ديوان الدفتري**: ويشغل صاحبه المركز الثاني في الولاية باعتباره وكيل السلطان في الشؤون المالية.

وقد شغله في مصر والعراق في القرن (١٢هـ-١٨م) أحد كبار المماليك، وارتبط صاحبه في بلاد الشام مباشرة باسطنبول،وهو المسؤول عن أموال الولاية أمام الباب العالي

---

(١) الاشراف في مكه، آل البكري القاهرة، آل النقيب البصرة، ال الكيلاني بغداد، آل النقيب الموصل آل الخالدي والعلمي القدس آل الجابري في حلب .

(٢) ابراهيم خليل: تاريخ الوطن العربي، ص(٧١).

ويؤمن الميري[1] وكان الدفتردار عضواً بارزاً في ديوان المالية وعاملاً هاماً في حفظ توازن القوى لانة محصل الضرائب المتنوعة والذي يؤمن ارسالها للسلطان بعد أن يقع التزامها على من يرسوا عليه المزاد العلني[2]

ب- **ديوان الرزنامه:**[3] وهو ديوان دفتر اليومية، وصاحب الديوان يسمى "الروزنامجي" وهو يشرف على حسابات الاموال الاقطاعية ويساعد الروزنامجي عدد كبير من الكتبة المسلمين والنصارى لجمع الأموال الاميرية وصرفها في وجوهها المختلفة تحت اشراف رئيس ديوان الدفتردار بعد أن يرسو المزاد على صاحبه، فكان صاحب اليومية يقوم بتقسيط الالتزام حيث يقوم الأهالي بالخضوع لأوامر الملتزم وبالتالى دفع الضريبة المقررة.

وشملت الضرائب غير العقارية:

ضرائب الصناعة والتجارة والجزية على أهل الذمة بالاضافة إلى الجمارك.

وهناك تعاون تام بين الوالى والملتزم لالزام الفلاحين على دفع الضريبة وإلاّ انزال العقوبات التي تصل لحد الاعدام. وانقسم هذا الديوان الى عدد من الاقسام، في ولاية مصر ستة اقسام هي :

١- قلم باش خليفـــة: ويقيد جميع ايرادت مصر ومصاريفها ودفتر أحوال الألوية.

٢- قلم أفندي الشرقية: ويسجل التزامات الألوية الشرقية.

٣- قلم أفندي الغربيـة: ويسجل التزامات الألوية الغربية.

٤- قلم أفندي الشهـــر: ويسجل التزامات الألوية في الوجة القبلي.

٥- قلم أفندي المحاسبة: ويسجل قيود الضرائب على السكر والارز وماتنفقه الدولة على العمارات الصغيرة ومجمل الحج ومخصصات الى شريف مكة وجرايات اهالى الحرمين.

٦- قلم أفندية الموجقات السبع:ويسجل حسابات القوات العسكرية وقد ابقى الروزنامجي سجلة سراً لايطلع عليه أحد، ويحفظ في خزانة مغلقة عند انتهاء

---

(١) الميري المبلغ الذي حددتة الدولة كتصيب الولاية في مصاريف الادارة المركزية

(٢) غرايبة: مقدمة في تاريخ العرب الحديث جـ١، ص(٦٢).

(٣) روز تعني "يوم"، "نامة" تعني كتاب،دفتر.

العمل، كما اعتبرت اسرار الادارة المالية للولاية من اخطر اسرار الدولة .

وقد درجت الخطة على منح الموظف مصدراً من مصادر جباية الأموال كمعاش له بدلاً من الرواتب المقطوعة الثابتة التي لم تكن تدفع إلا نادراً.

القضاء والتشريع:

كانت الدولة العثمانية دولة اسلامية تلتزم بالشريعة الاسلامية في الشؤون الشرعية قضاء وافتاء وكان السلطان يعين شيخ الاسلام باعتباره رئيس القضاء الشرعي كله وقسمت الدولة العثمانية إلى منطقتين قضائيتين رئيسيتين هما: الروملي والاناضولي.

أ- منطقة الروملي القضائية وتتبعها شمال افريقيا.

ب- منطقة الأناضولي القضائية وتتبعها الأناضول والبلاد العربية الاسيوية ومصر.

ويرتبط بشيخ الاسلام قضاة ينوبون عنه في الولايات لقبو بـ" منلا" وهو الذي يقوم بتعيينهم بموجب "فرمان" كما كان يصدر قرارات بتعيين رجال الافتاء وعين شيخ الاسلام لكل مدينة مفتياً حنفياً لايتقاضى راتباً على عمله، ولم تحدد مدة ولاية المفتي، وتدخل الولاة والأعيان في تعيين رجال الافتاء وعزلهم، وكان شيخ الاسلام يلبي رغبات الأعيان والسلطات المالية في تعيين رجال الافتاء[1] ويقوم قاضي الولاية بتعيين القضاة الصغار وهم يرتبطون به، كما ارتبط بكل قاض عدد من النواب، ووجد في القاهرة احد عشر نائباً.

وقد بلغ عدد القضاة الكبار في الدولة (المنلا) سبعاً وعشرين قاضياً[2].

ولم ينتم القضاة الى عنصر أو أصل معين، فقد وجد من بينهم التركي والعربي والكردي وكانوا جميعاً من الأحرار المسلمين الذين نشأوا نشأة اسلامية.

وكان جميع القضاة على المذهب الحنفي الذي كان مذهب الدولة الرسمي، ولكن الدولة احدثت مناصب قضائية محلية بموجب المذاهب الأخرى كالشافعية في دمشق والموصل، والمالكية في مناطق أخرى، وقضاة دروز في جبل لبنان ونصارى[3].

---

(١) المفتي هو العالم بالشؤون الشرعية، ويعطي الرأي في القضايا الشرعية حسب الشرع المستمد من القرآن والسنة.

(٢) انظر غرايبة: مقدمة في تاريخ العرب الحديث جـ١ص (٧٨، ٧٩، ٨١).

(٣) المرجع نفسه.

وكان القاضي يدفع مبلغاً مالياً عند تعيينة لأولي الأمر في اسطنبول لان له الحق في جمع رسوم عقود الزواج والقضاء.

والجدير بالذكر أن الهيئة الاسلامية كانت تشرف على شؤون المساجد وما تقتضيه من عناية واشراف.

القوات العسكرية

اعتمدت الدولة العثمانية على المؤسسة العسكرية في التوسع والسيطرة، وتألفت المؤسسة العسكرية العثمانية من نوعين من القوات هما: القوات الاقطاعية والقوات الانكشارية. وترجع جذور تأسيس القوات الاقطاعية الى المراحل الاولى في نشاة الدولة العثمانية حيث اعتمدت على النظام الاقطاعي وهدفت من ذلك تأمين الرزق لفئات متعددة من الجند بدلاً من تخصيص رواتب لهم، فقد كانوا يجهزون انفسهم ويتقدمون إلى ميادين القتال عند الحاجة.

أما الهدف الثاني للقوات الاقطاعية فهو مساعدة الدولة في ايجاد مايحتاجه من الجند في حركة التوسع العثمانية. وقد شكلت قوات الفرسان الاقطاعيين نواة الجيش [1] وكان هؤلاء يعودون إلى بيوتهم عند انتهاء القتال، ولايبقى تحت تصرف الحاكم إلا خدمه ومماليكه ومن يستطيع أن يدفع لهم رواتب مستمرة .

أما القوات الانكشارية " قابو قول" فقد اعتمد العثمانيون عليها في ادارة عملياتهم التوسعية، وقد برز هذا النوع من القوات بعد أن فقدت القوات الاقطاعية أهميتها وبخاصة عندما صار من الصعب الاعتماد عليها في الأماكن البعيدة عن مواضع اقطاعها.

ومما ساعد العثمانيين على انشاء الجيش الجديد تلك الاعداد الكبيرة من الأسرى المسيحيين الذين أسرهم العثمانيون خلال توسعهم في أوروبا، فقد كانت العادة المتبعة تخصيص خمس الأسر ى للدولة وتحويلهم إلى جنود يعملون في بناء الدولة، واقرار الأمن وتثبيت الادارة في المناطق.

وتعود الى السلطان "أورخان"(١٣٢٦-١٣٥٩م) فكرة تأسيس الجيش الانكشاري والى

---

(١) ابراهيم خليل أحمد: تاريخ الوطن العربي الحديث والمعاصر،ص(٢٠).

السلطان "مراد الأول" ترسيخ أسسه وتنظيماته المعقدة والقائمة على الطاعة المطلقة والانقياد التام للسلطان ، بحيث أنه لولاهما لم يكن من الممكن ظهور مثل تلك القوة المميزة في الدولة العثمانية عسكرياً [1] والتي كانت تتألف من "المشاة" حملة البنادق "والخيالة" الذين يركبون الخيل ، "والمدفعية" التي يشرف عليها مجموعة مختصة بهذا النوع من السلاح.

وقد وجد في الولايات العربية نوعان من الجند هما: (جند الحكومة) وهم" القابوقول" الانكشارية الذين يعهد إليهم حماية القلاع السلطانية، ويرتبط قائدهم مع القائد الأعلى "الآغا" في العاصمة[2]. اما النوع الثاني فهو (جند الولاة) أو الحكومة المحلية الذين يتم تجنيدهم من داخل الولاية، ويرتبطون بالوالي الذي كان يقدم لهم أجراً معيناً وتألف الجيش النظامي الانكشاري من عدد يتراوح بين (١٦٥-١٩٦) أرطة عاملة و (٥٩) أرطة احتياط. وتألفت كل أرطة من مائة جندي برئاسة قائد يدعى "الشوربجي".

وقد كانت قوة الانكشارية نعمة على الدولة في بادئ الامر ثم اصبحت نقمة على الدولة والرعية، فقد أخذت تتدخل في الحكم والسلطة، واثبتت أنها أشد الفئات خطراً على أمن البلاد الداخلي بسبب تدخلها في شؤون الحكم والبلاد وبذلك أصبح هذا الجيش بعيداً عن ممارسة مهامه الرئيسة في حفظ الحدود وحمايتها من الاخطار، واصبح همّهُ العبث بمقدرات السلاطين مما جعل الدولة في القرن الثامن عشر تصاب بهزائم خطيرة أمام الدول الأوروبية مما جعلها توقع على معاهدات مهينة كمعاهدة "كوجك لوفتز" عام (١٦٩٩م) سلمت بموجبها المجر إلى النمسا، ومعاهدة "كوجك كينارجة" عام (١٧٧٤م) بعد هزيمتها أمام روسيا، ثم معاهدة "باسي" سنة(١٧٩١م) التي أذلتها أمام روسيا.

ان الهزائم التي لحقت بالدولة العثمانية دعت الى ضرورة ايقاف التدهور والاتجاه إلى حركة اصلاحات تستهدف في المقام الأول التخلص من الجيش الانكشاري وانشاء جيش جديد يحل محله حيث تم ذلك في عهد السلطان محمود الثاني (١٨٠٨-١٨٣٩م).

---

(١) نفس المؤلف: تاريخ الوطن العربي في العهد العثماني،ص (٧٧). بركلمان: تاريخ الشعوب الاسلامية (مجلد)،ص(٤٦٨).

(٢) غرايبة: مقدمة ص(٧١)

حالة الوطن العربي
«في القرن التاسع عشرالميلادي»
«السياسية والاجتماعية والاقتصادية»

تمهيد: تمتع العالم العربي خلال القرون الثلاثة الاولى من العهد العثماني بحكم سطحي عادل، باعتبار أن الغاية من وجود الدولة حماية الرعايا من الاعتداء وتحقيق العدالة، فالعثمانيون نجحوا في ذلك، فقد حموا الشعوب العربية من العدوان الخارجي، وضمنوا الأمن الداخلي في الولايات وتمتعت المدينة العربية بحسن الادارة والامن والنظافة بما لم تتمتع به المدينة الأوروبية.

ولم يحقق الحكم العثماني في هذه الفترة أية اصلاحات اجتماعية أو اقتصادية، لان الرعايا- في ذلك العصر- لم يتوقعوا من حكامها اصلاحاً ولا احداث تغيرات بل ارادوا من الحكومة أن تبقي كل شيء على حاله، فالدولة الفضلى - في عرف أهل تلك العصور هي الدولة التي لاتتدخل في شؤون الرعايا ولا تتحمل إلاّ مسئولية ضمان تطبيق الشريعة الاسلامية كما لم يكن من حق الدولة إزالة الأمية ونشر العلم وتحسين الصحة وتيسير المواصلات وحماية الاقتصاد القومي، لان الشعب هو الذي سيتحمل هذة المسؤوليات عن طريق الاوقاف وغيرها من المؤسسات الدينية فقد أشرف رجال الدين على التعليم، وأمنوا للشعب العدد الكافي من المدارس- حسب مقاييس العصور وضمنت الأوقاف الموارد المالية للانفاق على التعليم في شتى مراحله. وأمنت الأوقاف أماكن الاستراحة(الفنادق) والجسور، وتدخلت الدولة لضمان أمن الطرق.

ونظمت الشريعة الاسلامية كل شئ بحيث لم تتحمل السلطة الحاكمة مسئوليات واسعة، ولم يتحمل الشعب ثقل سلطة حاكمة تشرف على كل شئ وتتدخل في حياتهم. فعاش كل قطاع من المجتمع حياة انطوائية مستقلة عن غيره لايربطه بالآخرين إلاّ رباط الشريعة، فاستقلت الطوائف (الملل، والنقابات، والحرف، والحارات، والقبائل وشكل كل من هذة الفئات وحدة مستقلة في شؤونها الداخلية، تربطها بالدولة الولاء والشريعة وضريبة زهيدة تحاول دوماً

التهرب منها في نهاية العام.

وكانت الأمور في واقع البلاد العربية مستقرة وهادئة وجامدة فالثورات والفتن - على قلتها - على نمط واحد، والولاة يروحون ويجيئون لايختلف غير الاسم، ولم يتغير نظام الحكم، ووضع المجتمع ، والبناء الاقتصادي، ويمكن القول أن العرب تمتعوا خلال هذه الفترة باستقرار مميت كاد ان يقتل فيهم حب البحث والاستقصاء[1].

وأصبحت حالة الوطن العربي تسير نحو الضعف والتأخر والاضمحلال في شتى المجالات السياسية والاقتصادية، والاجتماعية والفكرية نتيجة الفوضى واضطراب الأمن .

الحياة السياسية

قامت الدولة العثمانية على فكرة التضامن الاسلامي، فاحترمت الدولة جميع الطوائف الاسلامية الموجودة فيها وتركتهم تحت قياداتهم الخاصة، وتركت أصحاب العصبيات ورجال العشائر خاضعين لقياداتهم، وحاولت الدولة اخضاع هذه القيادة لسلطة الولاة، فاصبحت الدولة تمثل خليطاً من نظم الحكم، واحتفظ الأهالي العرب بشخصيتهم بصورة واضحة سليمة وإن كانت الروابط المعنوية والاسلامية هي التي ظهرت كرابطة عامة تربط بين الجميع في ظل حكم السلطان مما ادى بالبلاد إلى التقهقر والتخلف[2].

وأستأثرت بعض الزعامات المحلية منذ النصف الثاني في القرن السادس عشر بالحكم وقامت أسر حاكمة أو عصبيات عملية في الولايات العربية بسبب ضعف الحكم العثماني، فأصبحت الجزائر شبه مستقلة فكانت تابعة اسمية للدولة العثمانية منذ مطلع القرن السابع عشر حتى احتلها الفرنسيون في عام (١٨٣١م) وكذلك الأمر بالنسبة لتونس التي اصبح حاكمها شبه مستقل الى أن فرضت عليها الحماية الفرنسية عام (١٨٨٢م).

أما ليبيا فقد كانت تابعة اسمياً اثناء حكم أسرة "القرمنلي"، ثم عادت ولاية عثمانية سنة(١٨٣٥م) وبقيت على هذا الأمر الى أن استعمرها الايطاليون سنة (١٩١٢م).

---

(١) غرايبه: مقدمة تاريخ العرب الحديث جـ١، ص (٨٨ ، ٨٩).

(٢) جلال يحي: العالم العربي الحديث المدخل، ص (٥٩).

وبقيت بلاد الشام ومصر والعراق تابعة للدولة على الرغم من الفتن والثورات التي قام بها عدد من الحكام الأقوياء، هدفوا من ورائها الى تدعيم استقلالهم الاقليمي وقد قامت هذه الحركات بشكل واضح في الأقاليم الجبلية كما هو الحال في لبنان وفلسطين أو أقاليم بعيدة عن سلطة الدولة ومركزها. فظهرت في مصر والعراق واليمن، كما ارتبطت بقيادة معينة، وتختلف كل ثورة عن غيرها. وهذة الحركات تعطينا صورة واضحة عن البنيان الاجتماعي الاقتصادي الذي أصبح يمثل الدولة العثمانية، كما تمثل صورة عن التفكك الموجود بين الوحدات الادارية الذي ادى بدوره إلى العزلة عن الدولة.

وخلاصة القول أن الأقطار العربية المختلفة كانت على درجات متفاوتة من التبعية، فالجزائر وتونس وطرابلس والمغرب كانت تعتبر ولايات عثمانية، وحصلت على استقلالها من الباب العالي منذ القرن السابع عشر، وفقدت الدولة سيطرتها الفعلية قبل منتصف القرن السابع عشر على اليمن، وكانت سلطة الباب العالي على سوريا وفلسطين ومصر والعراق سلطة اسمية يتولى فيها حكام- باشاوات يدبرون المؤامرات ضد السلطان تارة ، ويثور الزعماء المحليون ضد الباشوات تارة أخرى[1]

الحياة الاقتصادية

احتفظ العثمانيون،- بشكل عام بالنظام الاقتصادي الذي كان سائداً فيما قبل الفتح فبقيت الأرض والسلطة كالسابق.

وفي ٢١ نيسان سنة(١٨٥٧م) صدر قانون الأراضي ، وقد قسمت الأراضي الـــى:

الاراضي المملوكية ، والاراضي الأميرية ، والأراضي الموقوفة ، والأراضي المتروكة ، والأراضي الموات

وانشئ نظام قانوني لتسجيل العقود المختصة بالأراضي، وعالج هذا القانون مسألة منح سندات تفويض للمتصرفين بالاراضي الأميرية، إلاّ أن القانون لم يضع حلاً لمشاكل الأراضي، وقد أدى تطبيقه إلى ظهورطبقة ملاكي الأراضي، فقد سجلت مساحات واسعة

---

(١) لوتسكي: تاريخ الاقطار العربية الحديث، ص(٩).

باسم السلطان، وعدد من شيوخ العشائر واثرياء الدولة ، ولم يسجل باسم الفلاحين سوى قسم ضئيل ، ويعود ذلك إلى أن القوانين لم تحفل بتعيين مساحة الأراضي ، قدر اهتمامها بتعيين الحدود، كما ان الحكومة أوكلت الى حكام الألوية أمر تشكيل لجان مسح الأراضي ، مما أفسح المجال أمام التلاعب بالحدود وتغيير العلامات، وهذايفسر امتلاك عدد من وجهاء المدن الكبرى لعدد من القرى في الولايات [1].

وهكذا كانت الأراضي المملوكة ملكاً خاصا ًقليلة نسبياً إذا قورنت الى الأراضي الأخرى، وكان الفلاحون يملكون من هذه الأراضي المملوكة نسبة ضئيلة، وكان يحق لصاحب هذه الأرض حق التصرف بها حسبما يشاء، وكان صاحبها يدفع ضريبة العشر أو الخراج، الذي كان يصل أحياناً لنصف غلة الأرض، وكان من طبيعة نظام الالتزام السائد في الولايات أن أدى بالملتزمين الى استغلال الفلاحين، لتامين منافعهم بجمع الأموال التي دفعوها ، ثم تحقيق ربح خاص بهم.

لقد ادى هذا النظام " الالتزام " الى تدهور الريف وهجرة الفلاحين الى المدن فراراً من قسوة الملتزمين، فتدهورت الزراعة وعم الاضطراب في البلاد.

وقد ادى هذا الاسلوب، – حق الالتزام– الى خلق طبقة بين الدولة والاهالي تتولى جمع الضرائب والرسوم وكثيرا ًما كان الملتزم يلجأ الى الدولة لمساعدته في تحصيل الضرائب ولايخفى ماكان يلحق الفلاحين من الظلم والاهانة.

والضرائب التي تجبى هي الضرائب الشرعية التي أقرهًا الفقهاء على مدى الأزمنة الخراج، والعشر، والجزية ، من المسيحيين، إلاّ أن الولاة توسعوا كثيراً بحيث أخرجوها عن طابعها الشرعي.

وهناك ضرائب تسمى" الضرائب الديوانية" التي كان يفرضها السلطان وقت الحاجة مستنداً إلى سلطاته العرفية . وقد نظر الفقهاء اليها نظرة استياء وعدّوها غير شرعية، لكن احتجاجاتهم لم تسمع .وكانت هذه الضرائب اضافية على الأشخاص والأراضي والتجارة والحيوانات والمنتوجات المختلفة.

---

(١) ابراهيم خليل أحمد، تاريخ الوطن العربي الحديث والمعاصر، ص (٢٦).

وهكذا تعددت الضرائب بحيث لازمت كل نمط من أنماط الحياة الاقتصادية [1] واختلفت طرق تحصيلها، وتنوعت مقاديرها بين سلعة وسلعة ، وولاية وأخرى ، الأمر الذي أدى إلى تذمر الناس والامتناع عن دفعها.

أما فيما يختص بالصناعة، فقد كانت هناك صناعات حرفية تعتمد في الدرجة الاولى على العمل اليدوي، وكان الحرفيون منظمين في طوائف، ويرأس كل طائفة رئيس وهو الشيخ ويليه في المنصب المعلم ثم الصانع فالتلميذ، ولكل طائفة تقاليدها وعاداتها الخاصة بها.

وكانت دمشق، وحلب، وبغداد، والموصل، والقاهرة، وتونس، والجزائر، وتلمسان، وفاس ومراكش من اكبر مراكزالصناعة الحرفية في صناعة الأقمشة والسجاد والأسلحة والمصنوعات النحاسية وكان العديد من هذه المصنوعات يصدر الى اوروبا.

ولكن هؤلاء الصناع إذا قورنوا بعدد السكان فانهم نسبة قليلة، فقد كان سكان القاهرة في نهاية القرن الثامن ثلث مليون بينما الصناع الحرفيون (٢٥) الفاً وفي الوقت الذي بقيت الصناعة على حالها تتم في معامل يدوية، أخذت أوروبا في تطوير الصناعة كماً ونوعاً واسلوباً مما أدى بالتالي إلى تأخرها وقلة انتاجها، وضعف المردود الاقتصادي فضلاً عن كثرة الضرائب المتنوعة التي كانت تفرض على الصناع، وهذا أدى إلى تفسخ وتفتت الصناعة وبالتالي الى تدهورها .

أما **التجارة المحلية:** فقد كانت على نطاق ضيق ومحدود، بسبب تأخر وسائل النقل والمواصلات، وقلة الأمن في الطرقات التي تسير فيها القوافل، وقد حاولت الدولة القضاء على غزوات قطاع الطرق ، فعملت عل انشاء الحصون وترميم الموجود منها على طرق القوافل التجارية وطرق الحج ، إلاّ إأنها لم تستطع حماية الطرق بشكل كاف وقد ادى هذا الى انعدام الاستقرار السياسي ، وفقر الشعب ، وانخفاض مستوى الحياة بين الشعب.

أما **التجارة الخارجية:** فقد كانت بأيدي الأجانب منذ أوائل القرن السادس

---

(١) ضريبة رسوم الوثائق الشرعية، ضريبة التاج: رسوم بيع أي بضاعة تباع في السوق إذا كانت من أقليم مجاور، رسم قبان، ضريبة الدمغة وتؤخذ من الصناع، ضريبة الجمرك وهي نسبة مئوية، دفن الموتى والاغنام (كوده)، ضريبة المهنه...الخ.

عشر، فقد كانت أولى المعاهدات في النصف الاول من القرن السادس عشر بين السلطان "سليمان القانوني" والملك "فرنسوا الأول" ملك فرنسا. وقد وضعت التجارة الخارجية في أيدي الجاليات التي حطت رحالها في مختلف المدن والموانئ العربية، وكان هؤلاء يعيشون في خانات وتحت اشراف قناصلهم، الذين زادت سلطاتهم بحيث كانوا يحاكمون رعاياهم بالمحاكم القنصلية. وسرعان ما انضوى تحت حماية القناصل عدد من رعايا الدولة العثمانية وبخاصة اليهود الذين امتلكوا زمام التعامل المالي في الدولة لكونهم حلقة الوصل بين التجارة والأجانب. وبذلك تكونت جماعة رأسمالية داخل الولايات والعاصمة تضم أعداداً كبيرة من التجار اليهود الذين لجئوا الى أساليب ملتوية للسيطرة على كبار رجال الدولة بالرشوة والمؤامرات. وهذا بالتالي أدى إلى تدهور الاقتصاد في البلاد [1]

وهكذا تخلفت الزراعة والصناعة والتجارة في البلاد العربية بالرغم من توفر الطرق والموانئ، ووجود امكانات اقتصادية كفيلة بالتقدم والازدهار.

لقد عزل العثمانيون الولايات العربية عن كل نشاط سياسي، وحرموها من أية سمة قيادية وحولوا الوطن العربي الى ولايات تابعة الى اسطنبول، وذلك لعدم قدرة العثمانيين على فهم الدور التاريخي ولا المركز الاستراتيجي والحضاري للشعب العربي.

الحياة الاجتماعية

تميز الحكم العثماني للمجتمع العربي بالسطحية وعدم القدرة على التغلغل والغوص في أعماق حياة السكان في الوقت نفسة لم يُعْنَ كثيراً بما يجري في العالم ، لان الشعب العربي كان منغلقاً على نفسه محتفظاً بتنظمياته العائلية والقبلية وعاداته وتقاليده ولغته فلم يكن هناك تأثير وتأثر.

وأدى سوء الاوضاع الاقتصادية الى انتشار الأمراض وبالتالي الى زيادة الوفيات مما تسبب إلى نقص في السكان، وأدى عدم توفر الأمن الى كثرة غارات البدو على القرى والمدن.

وإذا القينا نظرة على المجتمع العربي نجد فيه طبقات عدة:

---

(١) ابراهيم خليل أحمد: تاريخ الوطن العربي في العهد العثماني،ص(٨٧).

١- طبقة الحكام والولاة: وهم من الأتراك، وهؤلاء يمارسون الحكم ويشكلون قمة الهرم، وهمهم الأول جمع الثروة.

٢- طبقة الاقطاعين: وهم أصحاب الاقطاعات العسكرية وبعض الملتزمين الذين يقعون في المرتبة الثانية، ولايختلف همهم عن الطبقة الاولى.

٣- طبقة رؤساء العشائر والشيوخ والاشراف: الذين لهم امتيازات في البلاد بحيث يعيشون في بحبوحة من العيش.

٤- طبقة العلماء: وهؤلاء لهم امتيازات بحكم مكانتهم الدينية فلهم مخصصاتهم من عائدات الأوقاف والعقود التي يقومون بها وهم معفون من كل ضريبة طلبا لرضائهم.

٥- طبقة أهل الذمة: وهم الطوائف غير الاسلامية؛ المسيحيون واليهود، وهؤلاء عليهم دفع الجزية، ولهم نظمهم وتقاليدهم الخاصة.

٦- طبقة عامة الشعب: وهم الفلاحون، وأصحاب الحرف، وعليهم العبء الأكبر فهم الذين يجندون وعليهم دفع الضرائب المتعددة.

الحياة الثقافية والفكرية

اعتمدت الحياة الثقافية والفكرية على الشريعة الاسلامية التي نظمت أحوال الناس الحياتية. إلاّ أن العلماء عاشوا حياة انطوائية مستقلة بعيدة عن الابداع والتفكير، فجمد البحث بسبب الركود المميت الذي أبعدهم عن حب البحث والاستقصاء فهو عصر جمود وعقم، [1]. وكان التعليم يقوم في المساجد والمدارس في المدن ويكاد يقتصر على تعلم القرآن والحساب ولم يُعْطِ الفرصة الكافية لافراد الشعب للتعليم، مما أدى إلى إنتشار الأمية والجهل بين أفراد الأمــة.

وعلى الرغم من ذلك فقد كان هناك منارات علمية في العلوم الشرعية التي كانت تؤهل العلماء وتحافظ على التراث الاسلامي" كالجامع الأزهر" في القاهرة، "وجامع الزيتونة" في

(١) فيلب حتي: تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، جـ٢ ص(٣٢٠)بيروت: دار الثقافة سنة(١٩٥٩م).

تونس وانتشرت في هذا العهد أفكارٌ بعيدة كل البعد عن الاسلام، كالتمسح بالقبور، والحجب والسحر والخرافات الدينية[1] مما دعا الى ظهور حركات اصلاحية اسلامية تعيد الناس الى الاسلام الصحيح ، وذلك بالعودة إلى الكتاب والسنة ، ومن هذه الحركات: "الوهابية" في الجزيرة العربية، "والسنوسية" في ليبيا "والجامعة الاسلامية"، وقد لعبت هذة الحركات دوراً بارزاً في التحرر الروحي والسياسي في البلاد العربية .

(١) بروكلمان: تاريخ الشعوب الاسلامية(مجلد)،ص(٣٨١).

الحركات الانفصالية عن الدولة العثمانية

تمهيد: ساعدت البيئة الطبيعية الصعبة في الأقاليم على ظهور حكام اقوياء يرتبطون في مناطقهم، ويدعون إلى تدعيم زعامتهم في المناطق التي يحكمونها بالانفصال عن الدولة العثمانية.

وقد ساعد ظهور هذة الزعامات ، النظام الاداري القائم في الدولة على عدم انفراد هيئة بالسلطان والنفوذ، فكان الوالي(الباشا) والى جانبه قائد الانكشارية(آغا) بالاضافة الى اصحاب الجاه والسلطة في البلاد وكان كل فريق يتابع ويراقب الطرف الآخر وإذا أضفنا انغماس الولاة العثمانين في جمع الثروات، وانشغال الدولة بالحروب الخارجية، الى جانب انحلال قوات الانكشارية من الداخل بمعنى أنها أخذت تهتم بالسيطرة والحكم أكثر من الحرب، فضعف ارتباطها بالثكنات العسكرية[1] كما لاننسى تسرب الضعف الى الخلفاء، كل هذه العوامل ساعدت على ظهور حركات انفصالية فبرزت في الأقاليم البعيدة عن سلطة الدولة ومركزها.، كما ظهرت هذة الحركات وبشكل واضح في الأقاليم الجبلية(لبنان، شمال فلسطين)، وولايات المغرب العربي[2] .

المماليك في بغداد

تجددت الاطماع التوسعية الصفوية، فاستغل الصفويون العصيان المسلح الذي قام به "بكر صوباشي" أحد ضباط الحامية الانكشارية في بغداد عام (١٦٢٣م)، فأعادوا احتلال العراق ثانية، واستمر هذا الاحتلال قرابة خمس عشرة سنة. وقد واجه هذا الاحتلال مقاومة عنيفة من العراقيين واتخذت المقاومة أشكالا وأساليب مختلفة، وقد كانت تعبيرا ً عن الشعور الوطني ضمن الاطار العثماني وضعت الدولة مسألة طرد الصفويين في مقدمة اهتماماتها ، فأرسلت ثلاث حملات الاولى سنة(١٦٢٥م) والثانية سنة(١٦٢٩م) ولم تنجح الا الثالثة التي

---

(١) ابراهيم خليل أحمد: تاريخ الوطن العربي في العهدالعثماني،ص(٨٩).

(٢) جلال يحي: العالم العربي الحديث(المدخل)،ص(٦٦).

قادها السلطان "مراد الرابع"(١٦٢٣-١٦٤٠م) واستطاع في٢٥ كانون الاول سنة (١٦٣٨م) دخول بغداد.

وتيسر للعراق حاكم قوي قادرعلى وضع خطة لمعالجة مشكلاته وقادرعلى انقاذه من التدهوروكان هذا الوالي "حسن باشا" الذي سبق ان عمل في ولاية حلب وقونيه، وديار بكر. ونستطيع القول أنه بتعيين "حسن باشا" بدا عهد جديد في تاريخ العراق الحديث، فله دور واضح في تأسيس أسرة حاكمة عرفت بحكومة" المماليك" استأثرت بالحكم (٨٢)سنة(١٧٤٩-١٨٣١م).

لقد توفرت مجموعة من العوامل ادت إلى اهتمام حسن باشا بالعراق فقد حكم (١٧٠٤-١٧٢٣م)[1] وفي مقدمتها حروب الدولة مع ايران، والمشكلات العشائرية، وتمردات الانكشارية، فكوّن قوةً عسكرية جديدة من المماليك الذين كانوا يجلبون من القوقاز ويربون تربية عسكرية وادارية بحيث يكونون قادرين على الحكم.

وقد تولى احدهم وهو "سليمان أبو ليله" ولاية بغداد بعد وفاة "أحمد بن حسن باشا" سنة (١٧٤٧م) الذي استطاع أن يسيطر على العراق، ويتحدى سلطة الدولة العثمانية فيمنع ارسال الجزية[2] واعترف به السلطان والياً على بغداد.[3] ولم تستطع الدولة القضاء على المماليك إلاّ بعد وفاة "داود باشا" الذي كان يتعاون مع الأنجليز، فقرر" السلطان محمود" القضاء عليه وتحقق ذلك في ١٤ أيلول سنة(١٨٣١م)[4].

آل معن في لبنان

اعترف السلطان" سليم" بأمير الشوف في لبنان المسمى "فخر الدين المعني" الاول سنة(١٥١٦م) واعترف بكل امتيازاته المتوارثة وفق تقاليد اجداده التي ترجع إلى عهد المماليك، واشترط عليه دفع جزء من الضرائب التي يحصلها لخزينة الدولة.

وكانت هذة سياسة تقليدية سارت عليها الدولة العثمانية في مراحل سيطرتها الاولى

---

(١) ابراهيم خليل أحمد: تاريخ الوطن العربي،ص(٩٢).

(٢) جلال يحي: العالم العربي الحديث، المدخل، ص(٧١).

(٣) غرايبة:مقدمة في تاريخ العرب الحديث، جـ١ ،ص(١٢٩).

(٤) ابراهيم خليل أحمد:تاريخ الوطن العربي،ص(٩٥).

بالاعتماد على الزعامات المحلية التقليدية المتعاونة معها، ولم تحاول الدولة الغاءها وانما حافظت على وجودها مستكينة إبان قوةّ الدولة ضمن الاطار العثماني[1].

ولكن فخر الدين اغتيل في ظروف غامضة بايعاز من والي دمشق فخلفه ابنه قرمقاز (قرقماس) سنة (١٥٤٤م)، فلجأ الى قلعة "نبعا" قرب جزين حيث ادركته الوفاة فقتل بالسم، وخلف وراءه ابناً كان له من العمر اثنتا عشر سنة سمي باسم جده فخر الدين . فقامت أمه الارملة باخفائه عند آل الخازن في" كسروان"[2].

فخر الدين المعنى الثاني(١٠٠٣-١٠٢٩هـ)-(١٥٩٠-١٦٣٥م)

تولى إمارة الشوف في عام(١٥٩٠م)، وكان أقدر الشخصيات وأحبها إلى الناس في تاريخ لبنان العثماني، إن لم يكن في تاريخ سوريا[3].

فكان سياسياً ماهراً[4] تخطت إمارته منطقة جبل لبنان ووصلت إلى شمال سوريا وداخل فلسطين وأبواب دمشق، وجعل هذا التوسع مشايخ المنطقة والبيوتات الارستقراطية يدينون بالولاء له، ويلتزمون بدفع الضرائب المترتبة عليهم لقاء ادارتهم شؤون مقاطعتهم[5] لقد وضع فخر الدين المعني امامه ثلاثة أهداف:

إقامة لبنان على نطاق واسع، وقطع آخر صلة له بالباب العالي، ثم السير بدولته في طريق التقدم والازدهار.

وقد عمد إلى تحقيق هذه الأهداف بوسائل شتى منها التزاوج والرشوة، والدس والأحلاف والقتال.تسلم فخرالدين من السلطان "سنجق بيروت وسنجق صيدا"، فحمل على جاره ووالد زوجته"يوسف سيفا" فانتزع من يده السيطرة على لبنان الشمالي، ثم ضم منطقة بعلبك ومنطقة الجليل، وبذلك أصبحت إمارته تمتد من نهر الكلب إلى جبل الكرمل بما في ذلك

---

(١) ابراهيم خليل أحمد:تاريخ الوطن العربي،ص(١٠١).

(٢)د. ياسين سويد:التاريخ العسكرى للمقاطعات اللبنانية فى عهد الامارتين،مجلد(١) ،بيروت المؤسسة العربية للدراسات سنة(١٩٨٥م).

(٣) حتي: تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، جـ٢، ص (٣٢٧).

(٤) لوتسكي: تاريخ الاقطار العربية، ص(٣٥).

(٥) ابراهيم خليل احمد: تاريخ الوطن العربي ص(١٠١)

مدن صفد، وبانياس، وطبريا، والناصرة بالاضافة الى سهل البقاع كما تحالف مع حاكم حلب"علي جانبولاد" الكردي[1].

إن هذا الاتجاه الاستقلالي فرض عليه ايجاد جيش قوي قادر على الدفاع عن الإمارة، فأعد جيشاً مدرباً منظماً بدأه بنواة من الجنود المحترفين يدعمه الجنود القدامى النظاميين، وقد بلغ تعداده(٤٠) الف مقاتل[2] وقد تطلب السير بدولته في طريق التقدم، تنشيط التجارة الداخلية والخارجية، فشجع الصناعة والزراعة من الحرير والصابون وزيت الزيتون والقمح، فعقد اتفاقية سرية مع دولة "توسكانيا" الايطالية سنة(١٦٠٨م) [3] تقتضي تنشيط التبادل التجاري، وتقوم توسكانيا بتزويده بالمعدات الحربية والقطع البحرية، ثم تطورت الاتفاقية بين الدولتين من اقتصادية إلى سياسية يرمي الأمير من ورائها التزود بالاسلحة والذخائر والفنيين.

وعلى الأثر قرر السلطان بايعاز من والي دمشق "أحمد حافظ باشا" أن يتخذ تدابير فعلية لوضع حد لحركة فخر الدين الانفصالية وسياسته التوسعية، فأوعز الى ولاة حلب، وديار بكر، وطرابلس بمؤازرة والى دمشق للقضاء على الأمير فخر الدين.

استطاع الأمير فخر الدين الصمود أمام القوة المؤلفة من ثلاثين ألف مقاتل تسعة أشهر اضطر بعدها أن يأتمر بوحي العقل فعمد إلى التراجع، ورافق أنذاك وجود ثلاث سفن في مرفأ صيدا حملته مع احدى زوجاته وموكب من اصدقائه ومريديه الى ايطاليا، وترك الإمارة في يد ابنه علي يساعده أخوه يونس[4].

قضى فخر الدين خمس سنوات في "فلورنسا" اطلع خلالها على مظاهر التقدم الصناعي والاقتصادي والثقافي والحياتي فيها.

ثم أصدر السلطان" عثمان الثاني" (١٦١٨- ١٦٢٢م) العفو عنه، ولم يكد يسترجع ممتلكاته حتى صار يعنى بها، ووضع خطة لتطويرها اقتصاديا ، فشجع التجارة الخارجية،

---

(١) حتي: ن٠م ص (٣٢٧، ٣٢٨).

(٢) جلال يحي: العالم الغربي الحديث، المدخل، ص (٦٧).

(٣) ابراهيم خليل أحمد: تاريخ، ص (١٠٢).

(٤) حتي: تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، جـ٢. ص (٣٢٩).

واندفع في تحديث البلاد.

فارسل مجموعة من الشباب للدراسة في ايطاليا لنيل أحدث العلوم والفنون واستقدم من ايطاليا مهندسين مدنيين وآخرين للري وخبراء زراعة لتوجيه الفلاحين اللبنانيين . ثم أخذ ثانية يعمل من اجل الاستقلال .فاعلن التمرد ثانية على الدولة العثمانية عام(١٦٣٥م) مستغلا ًانشغال الدولة بحروبها مع الصفويين، فوسع حدود دولته حتى وصلت صفد، ونابلس، وعجلون، بعد أن هزم والي دمشق.

وجه السلطان مراد الرابع اسطولاً إلى الساحل السوري فاحتل المرافئ، وفي نفس الوقت استدرج ابن الأمير فخر الدين"علي"إلى خوض معركة فاصلة دارت رحاها في السهول، فهزم هزيمة شنعاء ولقي حتفه، مما اضطر فخرالدين أن يستسلم في ١٢ تشرين الثاني، فحمل الى اسطنبول حيث قطع رأسه ورؤوس بنيه الثلاث في ١٣ نيسان (١٦٣٥م) وحاول ابن اخيه ملحم ان ياخذ بثأر الاسرة عن طريق الثورة المسلحة ولكنه فشل .

عمد والي دمشق "أحمد باشا الكوبرلي" إلى تشريد العديد من العوائل عن ديارها، وقطع نحواً من خمسين الف شجرة توت تمثل مصدر الثروة للبلاد، وساءت أوضاع البلاد وتدهور اقتصادها فطرأ على لبنان عهد مشؤوم من القلق والفوضى .

وعاد الحكم العثماني المباشر الى جبل لبنان- لكن العثمانيين استعانوا بالامراء الشهابيين الذين خلفوا المعنيين في الوفاء بالتزامات المنطقة المالية للدولة.

آل ظاهر العمر في فلسطين (١١٠٦-١١٨٩هـ) - (١٦٩٥-١٧٧٥م)

ينسب آل ظاهر العمر إلى حمولة "الزيادنة" الذين هم من اعقاب الحسين بن علي [1] انتقل "عمر بن زيدان" الى صفد حيث عينه الأمير بشير الشهابي والياً عليها(صفد) يساعد ابن اخيه الامير منصور، وفي اثناء ذلك ولد ظاهر عام(١١٠٦-١٦٩٥م)، ثم خلف أباه على صفد، فضم طبريا وجدد قلعتي طبريا وصفد، ولم تلبث بلاد نابلس أن خضعت له عام (١٧٣٥م)، كذلك يافا والناصرة، وساعده نجاحه فضم عام (١٧٥٠م) مدينة عكا، حيث اتخذها

(١) بروكلمان: تاريخ الشعوب الاسلامية جـ٢،ص٥١٤ ، حتي تاريخ سوريا جـ٢ ،ص٣٢٢.

مقراً له، فبنى فيها قصراً وسوراً وابراجاً ، واستخدم المدينة لتصدير خيرات فلسطين من قمح وحرير وقطن[1] ثم احتل مرفأ صيدا بعدأن تحالف مع المقاومة في جبل عامل.[2]

كان ظاهر العمر حاكما مطلقاً محباً للخير، قطع دابر التمرد، ونشط الزراعة، ووقف من رعاياه موقفا سمحاً وبخاصة مع النصارى، وكانت البلاد براحة واطمئنان والطريق بامان بحيث اذا سافرت المرأة وعلى كفها الذهب لا يعترضها احد في الطريق ولاتخاف على نفسها أمراً وكان يدفع المال الى الحكومة العثمانية بكل دقة [3].

ورغب ظاهر العمر في الاستقلال التام عن الدولة العثمانية ، وقد بدأها كما مرّ بمحاولات توسعية، ورأى ان الطريق مناسب لذلك، فتحالف مع حاكم مصر المملوكي"علي بك الكبير" اللذان استغلا حرب الدولة العثمانية مع روسيا في عهد ملكتهم "كاترين". فقام حاكم مصر بتحدي السلطان ورفع ظاهر لواء العصيان معه[4]. وجه "علي بك الكبير" مملوكه "محمد أبو الذهب" فاستولى على دمشق سنة(١٧٧١م)وما حولها ما عدا القلعة وكافأ حليفه ظاهر العمر وضم له يافا، وغزه، والرملة، ثم تمكن بمساعدة الروس من احتلال صيدا سنة(١٧٧٢م) [5] وبذلك يصل ظاهر العمر الى قمة مجده وقوته السياسية، ويعتبر اعظم فلسطيني عرفه القرن الثامن عشر جاهد في سبيل استقلال بلاده[6].

استاءت الدولة العثمانية من تصرفات ظاهر العمر، فقد تحالف مع "على بك الكبير" الذي خرج على الدولة العثمانية، كما طلب مساعدة الاسطول الروسي، أكبر اعداء للدولة.

بدأ انهيار الحليفين، فقد غدر" محمدأبو الذهب" بسيده وقضى عليه[7] وأعاد اعترافه بالدولة العليا فتفرغت الدولة لظاهر العمر وبذلك خسر ظاهر العمر سياسياً

---

(١) ابراهيم خليل احمد:تاريخ الوطن العربي ص١٠٢.
(٢) لوتسكي: تاريخ الاقطار العربية ص٣٧.
(٣) حتي: سوريا ولبنان وفلسطين، جـ٢ ،ص، (٣٣٧).
(٤) رافق العرب والعثمانيون، ص(٢٩٥-٣٠٤) دمشق مكتبة أطلس سنة (١٩٧٤).
(٥) رافق : العرب والعثمانيون،ص(٣٠٧).
(٦) الدباغ القبائل العربية، ص(٧٤)، بلادنا فلسطين جـ٦ قسم٢، ص(١٠٩).
(٧) رافق: العرب والعثمانيون، ص (٣٠٨).

وعسكرياً [1] فاستعانت الدولة "بيوسف شهاب" (حاكم جبل لبنان) كما أوعزت للقائد "أحمد الجزار الالباني"، وساعدهما الأسطول العثماني، فتمكنوا من احتلال صيدا سنة (١٧٧٥م)، ثم محاصرة ظاهر العمر في قاعدته الحصينة عكا، من البر والبحر، وظل ظاهر العمر يقاوم الحصار حتى كلت قواه وفرغت ذخيرته فحاول الهرب، ولكن محاصريه قبضوا عليه، وقتل عام (١٧٧٥م) بعد أن عمرت دولته مدة تزيد على ربع قرن وقد اعتبر ظاهر العمر خارجاً على الخلافة لانه استعان باكبر أعداء الدولة وهم الروس.

أحمد باشا الجزار(١١٨٩-١٢١٩هـ)-(١٧٧٥-١٨٠٤م)

يعود أصل الجزار إلى "البوسنة" [2] ، نزح إلى اسطنبول حيث انتهى به المطاف إلى نخاس يهودي لينتهي به الأمر مملوكا إلى "علي بك" في القاهرة وقدأنس فيه سيده القوة والصراحة، ووجده غليظ القلب فعينه جلاداً وقد اظهر من التفنن في اتقان مهمته والرغبة بها ما اكسبه لقب الجزار [3] .

وحدث خلاف بينه وبين سيده علي بك الكبير، فهرب من مصر واتجه الى الدولة العثمانية التي رحبت به، وبعد ان انتهى علي بك الكبير حليف ظاهر العمر، قام بخدمات جلى ضد ظاهر العمر، فكوفئ بتعيينه حاكماً على صيدا سنة(١١٩١م) ، واشتدت مكانته، وقد ولي دمشق مع بقاء عكا معه، ثم استقل بولاية عكا للفراغ السياسي في بلاد الشام ثم أخذ يغزو الأطراف فوقعت بينه وبين يوسف الشهابي وقعة في "نقار السعديات" [4] (بين صيدا وبيروت)، فلم يسلم من جماعة الشهابي إلاّ قليل،ثم وقعت بينه وعسكر لبنان عدة وقائع انتصر فيها على أهل الجبل، وداهم بعسكره بعلبك وزحلة . وقوي الجزار بمجيء ستمائة فارس سلموامن القتل كانت الدولة قد أمرت بقتلهم، فقوى جيشه وامتد نفوذه الى بعلبك والبقاع ، وفي سنة(١١٩٣هـ-

---

(١) أحمد شلبي : التاريخ الاسلامي، والحضارة الاسلامية، ص (٣٨٣)

(٢) مقاطعة في يوغسلافيا اليوم .

(٣) أحمد شلبي: التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية ص(٣٨٣)، وافق: العرب والعثمانيون، ص (٣١٠).

(٤) حتي: سوريا ولبنان وفلسطين، جـ٢، ص(٢٣٨)، تاريخ العرب المطول، جـ٢ و ص(٨٦١).

١٧٧٩م) نقل الجزار مركزه إلى عكا فحصنها وامتد نفوذه الى نابلس وقراها[١].

اخذ الجزار في تحصين عكا والنهوض بها، فزاد في تقوية حصونها وابراجها وبنى لها سورين الواحد ضمن الآخر، وانشأ العمارات، وأقام سوقاً وحماماً وثكنة عسكرية، وبنى خاناً وبنى جامعاً فخماً ، فكان ابدع مظهر للبناء في العهد العثماني في بلادالشام، وفرغ من انشائه (١١٩٦هـ-١٧٨١م)، وجعل ضمن الجامع مدرسة يدرس فيها علوم الشرع والفقه ومكتبة، وأوقف على الجامع المنازل والحوانيت.

انتهز الجزار فرصة تجدد الحرب بين روسيا والدولة العثمانية(١٢٠٣هـ-١٧٩٠م) فقام باجلاء الفرنسيين من مقرهم التجاري وامر القنصل الفرنسي بمغادرة عكا.

وقد اتبع الجزار أسلوباً رابحاً في الشرق هو احتكار التجارة، فاحتكر تجارة الحبوب والقطن، فما من أحد يستطيع البيع والشراء سواه، وهذا زوده بموارد مالية ضخمة، وحاول التجار الأوروبيون الاحتجاج على احتكاره فكان يجيبهم «أنا السلطان في بلادي»[٢]

وحسنّ مرسى عكا شمال الكرمل إلى أسفل حيفا فكثرت السفن التي ترسو فيه، وقد عمد الجزار الى بناء اسطول بحري وجيش من المشاة بلغ عدده قرابة ألف جندي وظل يحكم المنطقة قرابة ثلاثين سنة، وقد بلغ أوج مجده سنة(١٧٩٩م) عندما استطاع أن يوقف زحف نابليون[٣].

وصلت أخبار حملة نابليون إلى الجزار، فأخذ يستعد لمقاومته فحصن المدينة وزوّدها بمختلف المدافع والقنابل والبنادق وغيرها من أدوات الحرب.

أقام نابليون مقر قيادته على جبل الكرمل، ولما أخذ الاسطول الفرنسي يدنو من راس الكرمل، تمكن الاسطول الانجليزي بقيادة "سدني سمث" ان يسبق الاسطول الفرنسي، فاستولى على ست سفن ولم ينج إلاّ سفينة واحدة كانت تنقل أوراق بونابرت الخاصة.

وفي(٢٠ اذار سنة١٧٩٩م) اتخذ الجيش الفرنسي موقعه أمام عكا، دون أن تكون لديه مدافع ضخمة للحصار، وعلى الرغم من ذلك لم يخامر نابليون شك في احتلالها بعد أيام

---

(١) محمد كرد علي : خطط الشام، جـ٢ ، ص (٣٠٢،٣٠١) بيروت دار العلم للملايين ، ط٢ سنة (١٩٦٩)

(٢) ابراهيم خليل أحمد: تاريخ الوطن العربي، ص (١٠١).

(٣) أحمد شلبي: التاريخ الاسلامي، جـ٥ (٣٨٤).

وفي يوم ٢٨ آذار اعطى نابليون الأمر بالهجوم، فرد مقاومو عكا بنيران مضادة بلغ من تدميرها أنة لم تمر ساعتان حتى فقد الفرنسيون أربعين مدفعيا ً بين جريح وقتيل وعطلت مدافعهم كلها ماعدا ثلاثة.

وهكذا وضح فشل الهجوم الفرنسي، وفشل الجيش الفرنسي في احراز النصر، ولكن نابليون لم يعرف التخاذل، فأمر بهجوم آخر أول نيسان، وفي هذا الهجوم جرح أو قتل جميع المهاجمين تقريباً، وهنا أدرك نابليون أن المزيد من المحاولات لن تجدي مالم تصل مدفعية، ولم يقع بعد ذلك هجوم آخر على عكا لمدة طويلة، ثم قام" كليبر" في ٩ ايار بزحف على عكا تعزيزاً لقوات الحصار، ولكن المهاجمين المندفعين كالمجانين قتل اكثر من نصفهم قوةّ الجيش المحاصر، وأخيرا ً قرر نابليون الرحيل، فقذف عكا بجميع ما يملك من مدافع ولمدة أربعة أيام متوالية(١٢-١٥ أيار).

وأخيرا ًوفي الساعة الثامنة من هبوط الظلام من يوم ٢٠ أيار من عام (١٧٩٩م)؛ أخذ الفرنسيون بالتقهقر بعد حصار امتد (٦٣) يوماً وهكذا فشل نابليون القائد الاسطوري الذي دوخ العالم في حملته على عكا، وتبخرت احلامه بتأسيس امبراطورية[1] .

لقد كان لصمود الجزار في عكا، وإفشاله لمحاولة نابليون أكبر الأثر لدى السلطان العثماني، فارتفعت مكانته، فلم تحاول الدولة أن تنغص عيشه، فظل يحكم المنطقة حتى سنة(١٨٠٤م)، حيث مات وهو ينعم بالهدوء ورغد العيش[2].

محمد علي (١٧٦٩- ١٨٤٨م)

ولد محمد علي في "قَوَلة" على الساحل المقدوني ببلاد اليونان سنة(١٧٦٩م)، ولم يحظ بتربية مدرسية صحيحة، فآثر الاشتغال بالتجارة فعمل في تجارة التبغ، أهم السلع في تلك المنطقة.

---

(١) الدباغ: بلادنا فلسطين جـ٧،قسم ٢،ص (٢٥٦).

(٢) أحمد شلبي: التاريخ الاسلامي. جـ٥ ص(٣٨٤).

كلفّ السلطان العثماني" سليم الأول" والي اليونان أن يرسل كتيبة مؤلفة من ثلاثماية مقاتل لمصر لمحاربة الفرنسيين، وصادف أن كان نائب الوالي في اليونان عمّ محمد علي، فقام نائب الوالي بإرسال كتيبة بقيادة ابنه الصغير يساعدة ابن عمه محمد علي، وسرعان ماتولى محمد علي القيادة الفعلية، في بعض المعارك ضد الفرنسيين فسطع نجمه في سلم الترقيات حتى اصبح الرجل الثالث بين قادة العثمانيين، وتألق نجمه عندما تمرد الجنود على "خسرو باشا" وقتلوا "طاهر باشا"[1] وعين السلطان العثماني "خورشيد والياً على مصر"[2]

لاحظ محمد علي بما لديه من مقدرة ونفاذ بصيرة نزوع اتجاهات الوعي الوطني والقومي في مصر إلى الاستقلال، فلم ير بدا من السير في هذا الاتجاه سيرا واعياً ،وملماً بتفاصيلها مدركاً أبسط وادق حقائقها، فوضع خطة لتحقيق ذلك تبدأ بالتقرب إلى المصريين من جهة والتعاون مع المماليك من جهة ثانية والتحبب الى العلماء ليكسب ثقة الجميع.

ارتكب جند الوالي خورشيد بعض المفاسد بناء على اوامر الوالي الذي كان يتصرف بعنجهية الاتراك مما زاد ثورة الشعب التي شارك فيها جميع فئات الشعب وتحولت القاهرة الى ميدان حرب،و لم تنقطع المناوشات بينهم وبين جنود الوالي فسقط من الجنود خلال شهر واحد ثلاثمائة وخمسون قتيلاً، واخيراً اجتمع زعماء الشعب المصري وأعلنوا عزل الوالي التركي "خورشيد باشا" واختاروا محمد علي والياً على مصر في (١٣ آيار سنة (١٨٠٥م) وألبسه قائد الشعب: "عمر مكرم،والشيخ عبد الله الشرقاوي" خلعة البيعة ولم يخضع خورشيد لقرار العزل من الشعب، وتحصن بالقلعة، لكن الدولة العثمانية وجدت من الحكمة أن توافق على ما ارتآه الشعب المصري، فصدر فرمان من السلطان في تموز(١٨٠٥م) بتعيين محمد علي والياً على مصر.

أخذ الشعب على محمد علي العهود والمواثيق أن يحكم بالعدل، ولايبرم أمراً إلاّ بمشورتهم، لان توليته من قبل الشعب كانت تعبيراً عن حق الشعب المصري في تقرير مصيره واختيار حاكمه بنفسه، من خلال زعمائه وممثليه، وقد كان هذا الحدث مهماً في تاريخ مصر الحديث.

(١) أحمد شلبي : التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية، جـ٥ ، ص (٢٧٠ ، ٢٧١)

(٢) ابراهيم خليل: تاريخ الوطن العربي في العهد العثماني،ص (١٣٩).

تحديات أمام محمد علي

لم تكن مصر مهمة بالنسبة للدولة العثمانية إلاّ باعتبارها قاعدة عسكرية تساعد على الاحتفاظ بسيطرتها على بلاد العرب بالاضافة إلى ماتقدمه للدولة من ضرائب، ولكن محمد علي لم يكن يرى ما راه نابليون من أنها درجة دنيا من درجات طموحه، بل مركز الدائرة لتاريخه المستقبلي القائم على الانفراد في السلطة. ولكن أنّا له هذا وتواجهه تحديات اربع: الدولة العثمانية،الانجليز، المماليك، وزعماء الشعب.

ساعدت الظروف محمد علي على التخلص من هذه المشكلات واحدة واحدة ، لقد استطاع محمد علي أن يصل الى اتفاق مع الدولة، فتعهد بأن يدفع لها جزية سنوية قدرها عشرون الف جنيه، وبذلك ايد مستشاروها ابقاء محمد علي في منصبه[1].

أما المماليك فقد تجمعوا في الصعيد، وبخاصة من نجا منهم من المذبحة (٢٥٠٠)، وكان المماليك تحت قيادة زعيمين هما "عثمان البرديسي" عميل فرنسا، "ومحمد علي الالفي" عميل بريطانيا، وحاولت كل من الدولتين تثبيت صاحبهما، ليؤمن لها التسهيلات الاقتصادية والسياسية لذلك نشب صراع بينهما .

دعم محمد علي باشا عثمان البرديسي فأنهيا محمد علي الألفي عام(١٨٠٦م) وما أسرع أن أنتهى محمد علي من عثمان البرديسي، وبذلك تخلص من عدوين قويين.

غزا الانجليز مصر بقيادة الجنرال "فريزر" في (١٧آذار ١٨٠٧م)، ونجحوا في انزال قواتهم التي قوامها خمسة آلاف مقاتل في رشيد .

وخاض عرب مصر بقيادة محمد علي حرباً ضد المحتلين، فسحقوا في شوارع الرشيد وحدة عسكرية انجليزية عددها ألف محارب، فوجه القائد الانجليزي وحدة أخرى أقوى بمرتين من الاولى، إلاّ إنها سحقت وبذلك اندحروا مرتين في معركة الرشيد، وفشلوا بعد موت عميلهم محمد الالفي من إثارة المماليك للقيام بتمرد جديد، زحف محمد علي بجيشه نحو الاسكندرية وفرض على القائد الانجليزي صلحاً تم على أثره الجلاء عن الأراضي المصرية

(١) بروكلمان: تاريخ الشعوب الاسلامية(مجلد)، ص (٥٤٢).

وذلك في أيلول عام (١٨٠٧م).

ثم دبّر محمد علي مذبحة القلعة فتخلص من بقايا المماليك في الصعيد واتبعهم بالجنود الألبانيين في آذار عام (١٨١١م)[1]

لقد كان تخلص محمد علي من المماليك، وايقاف الغزو البريطاني، ايذاناً بانهاء الشغب والفساد اللذين كان من ورائهما المماليك وأسيادهم فصفا له الجو وزادت مكانته، فلم يمض وقت طويل حتى تخلص ممن يقفون أمام طموحه ألا وهم زعماء الشعب أصحاب الفضل في وصوله الى مرتبته، فنفى "عمر مكرم" إلى دمياط[2] وفرض الإقامة الجبرية على شيخ الأزهر "عبد اللة الشرقاوي" وهكذا تخلص محمد علي من التحديات ا لتي كانت تقف أمام طموحه ورغبته في وضع مقومات بناء الدولة الحديثة وبخاصة أن الباب العالي قد اقتنع بجدارته في حكم مصر.

---

(١) ابراهيم خليل: تاريخ الوطن العربي، ص (١٤٩ ـ ١٤١) جلال يحي: العالم العربي الحديث، ص(٨٨).

(٢) جلال يحي: العالم العربي الحديث(المدخل) ، ص(٨٧).

محاولات محمد علي لبناء الدولة الحديثة

لاحظ محمد علي بما امتلك من مقدرة ونفاذ بصيره، توجه الوعي الوطني في مصر الى الاستقلال فسار بهذا الوعي سيراً واعياً ضمن خطة منظمة، تقضي الى ادخال تغيرات اقتصادية واجتماعية تهدف الى قيام دولة حديثة،قادرة على حماية الاستقلال، فكانت جهوده لجعل مصر دولة حديثة، ومنها لدولة عربية تضم البلاد العربية باعتبارها ناطقة باللغة العربية"[1] ومن هنا يمكن القول بانة مؤسس مصر الحديثة ""[2]، وهذا يبدو واضحاً طبقاً لسلسلة التغيرات التي أنجزها على مختلف الأصعدة العسكرية والادارية والاقتصادية والتعليمية والتي أدت بدورها الى توطيد الأمن، وضرب الاقطاع، ومد حدودها الى كل منطقة في الشرق الادنى، وبذلك وضعت بذور وحدة الأقاليم العربية داخل حدود دولة واحدة في تماسك تام بينها، فكانت دولته تجربة فريدة في التاريخ العربي حملت معها عوامل الحياة ""[3] وأدت إلى نتائج مهمة في مراحل لاحقة من تاريخ مصر الحديث.

١- الانجازات العسكرية:

اعتقد محمد علي أن الجيش هو الدعامة الأولى والوسيلة الفعالة في إقامة دولة عربية حديثة موحدة، لذلك أخذ يعد دوائره واجهزته لتقوية الجيش والأسطول.

بدأ محمد علي تنظيم جيشه على غرار الجيش الفرنسي، فاستقبل بعثة عسكرية فرنسية بقيادة الجنرال "بوابيه" لتدريب الجيش، واستعان بعقيد آخر اسمه "أوكتاف" جوزف سلمْ سيف seves سنة (١٨١٩)(عرف فيما بعد بسليمان باشا الفرنساوي) لتنظيم جيشه على غرار الجيش الفرنسي.

ثم قام بتأسيس عدد من المصانع الحربية للبنادق والمدافع والمتفجرات، ولم يكتف بشراء عدد من السفن من "مرسيليا وتريستا"، بل أنشأ ترسانة بحرية كبرى في الاسكندرية

(١) جورج انطونيوس:يقظة العرب،ص(٩٣).

(٢) ابراهيم خليل أحمد:ص(١٤١).

(٣) جلال يحيى العالم العربي،ص(٩٩).

تمكنت من انزال أول سفينة مصرية ذات مئة مدفع في كانون الثاني سنة(١٨٣١م)[1] تحت اشراف المهندس الفرنسي"سريزي"، كما أرسل عدداً من الشبان لدراسة فن بناء السفن، وخلال فترة قصيرة تم تدريب (١٥) ألف مصري على الفنون البحرية[2] ولم يكتف بذلك بل أسس عدداً من المدارس العسكرية لاعداد الضباط ومدارس بحرية وأكاديمية عليا وهي اول كلية عسكرية في مصر. ومن المدارس: مدرسة للمشاة في دمياط، وأخرى للفرسان في الجيزة، وللمدفعية في طرّة " وللموسيقى في القاهرة . وترجمت الانظمة العسكرية، فكانت اللغة العربية لغة الجيش والادارة . وبدأت هذه المدارس تغذي الجيش بالكوادر الفنية، واقام معسكرات التدريب في اسوان، واتسع نتيجة ذلك حجم الجيش المصري، فأصبح يضم سنة (١٨٣٣م) قرابة (١٨٠)ألف جندي الى جانب القوات غير النظامية وهم حوالي (٤٠) ألف شخص، وبلغ الأسطول المصري خمسون قطعة[4]، وفضلاً عن ذلك قام بتشييد حصون جديدة وعديدة في مصر وعمّر وجدد القديمة منها.

٢- الانجازات الادارية وتنظيم جهاز الدولة:

تناولت جهود محمد علي الاصلاحية النواحي الادارية، فقام باخفاء اسماء الدوائر الادارية القديمة، وأظهر اسماء جديدة، فاستحدث كلمة مديرية بمعنى محافظة، وظهر لقب مدير أي رئيس المديرية، ورئيس مركز وهو الذي يضطلع بالمسؤولية الكاملة في القرى الواقعة تحت اشرافه، واستخدم لقب جديد هو "الحكمدار" وهو المسؤول عن الناحية المدنية والعسكرية في المناطق خارج حدود مصر[5]

واحتاج التوسع في الجيش، والاجراءات الزراعية، وبناء الاسطول وتطوير المدارس وتنمية التجارة والصناعة الى تأسيس جهاز حكومي للاشراف على مؤسسات الدولة ،فانشأ

(١) لوتسكي: تاريخ الاقطار العربية،ص(٦٨).

(٢) ابراهيم خليل: تاريخ الوطن العربي، ص(٦٧).

(٥) ابراهيم خليل أحمد:تاريخ الوطن، ص (١٤٢).

مجلساً للحكومة باسم" الديوان العالي" ومقره القلعة، وكوّن في نهاية عام (١٨٢٤م) مجلساً سماه " المجلس العالي" يتألف من نظار الدواوين ورؤساء المصالح واثنين من العلماء يختارهما شيخ الأزهر واثنين من التجار يختارهما كبير تجار العاصمة.

وركز أخيرا على العمل في الدواوين، وقد حصرها في سبعة دواوين كل ديوان هو اقرب إلى الوزارة في عصرنا الحاضر وهي[١]:

١) ديوان الخديوي(وزارة الداخلية). ٢) ديوان الايرادات(المالية).

٣) ديوان الجهادية(الدفاع). ٤) ديوان البحر(وزارة البحرية).

٥) ديوان المدارس(التربية). ٦) ديوان الفاوريقات، الفابريكات(وزارة الصناعة).

٧) ديوان التجارة (وزارة التجارة).

وطلب محمد علي من رئيس كل ديوان(مدير)، تقديم تقرير اسبوعي عن احوال ديوانه ، وميزانية سنوية، واستخدام مزيداً من المصريين في الوظائف والمراكز الادارية محل الاتراك والمماليك.

ولعل ذلك كان من أبرز التغيرات إلتي حدثت في بنية المجتمع المصري، وهو ظهور طبقة بيروقراطية " مكاتبيه"، كان لها أثرها في السيطرة على مقدرات الدولة فيما بعد[٢].

٣- الانجازات الاقتصادية:

ولتحقيق الرفاه المادي للبلاد فقد شملت اصلاحاته: الزراعة والصناعة والتجارة:

أ-الزراعة: ويمكن تلخيص ذلك بتشجيع الزراعة وتطوير نظام الري وادخال محصولات جديدة كالقطن والقنب وقصب السكر والتوت.

وجعل محمد علي الدولة هي المالكة الوحيدة لجميع أراضي البلاد، فصادر أراضي المماليك واستولى على أراضي الاوقاف خلال السنوات(١٨٠٩- ١٨١٥م) وألغى سنة(١٨٠٩م) نظام الالتزام، ثم مسح الأراضي ابتداء من سنة (١٨١٣م)، ثم أعاد توزيعها على الفلاحين ،

(١) لوتسكي :تاريخ الاقطار العربية ، ص٧٢.

(٢) ابراهيم خليل أحمد :تاريخ الوطن العربي ، ص ١٤٤.

فأعطى كل خمسة أفدنة لفلاح لاستثمارها حسب توجيهات الدولة على أن تدفع الضرائب للدولة مباشرة، وإذا عجز الفلاح عن استغلال أرضه اوعجز عن دفع الضرائب، فللدولة الحق في استرجاعها، وحددت الدولة نوع المحاصيل، فتأخذ الحكومة حصتها كضرائب ثم تشتري الباقي بأسعار تقررها " الدولة "، وهي غالبا ًما تكون دون قيمتها الحقيقية ثم تبيعها للتجار الأجانب.

إن الغاء نظام الالتزام، وتقسيم الاراضي يعد انقلاباً اقتصادياً واجتماعيا ًفي مصر، فقد حرر الفلاحين من الالتزام، وأدى الى ظهور طبقة الملاك الذين قدر لهم ان يقوموا بدور أساسي في التاريخ الحديث[1].

وشعر محمد علي بضرورة إحاطة نفسه بطبقة ارستقراطية من ملاكي الأرض، فقام بتوزيع الأراضي الأميرية(غيرالمسجله) على كبار الموظفين وقادة الجيش على أن يأخذ المحصول بالثمن الذي تراه الدولة، وسميت الاراضي التي منحها لافراد اسرته(جفالك) وتعني بالتركية "ملك" كما عرفت اراضي كبار الدولة باسم (ابعاديات) لانها مبتعدة عن المسح[2].

ولعل من أهم الاصلاحات التي أتمها محمد علي بناء القناطر الخيرية على رأس الدلتا، وانشاء ترعة" المحمودية" التي نسبت إلى السلطان "محمود"، كما أنشأ مجموعة أخرى من الترع والجسور والقناطر وإقامة المدن، ومن هذه المدن "الزقازيق "التي أنشئت بمناسبة انشاء قناطر بحر "مويس".وقد كان من المتوقع طبقا لهذة الاصلاحات أن تزدهر الزراعة وتكثر المحاصيل لولا قسوة الضرائب، واحتكار الدولة للحاصلات مما أدى بالتالي الى الظلم والارهاق وحرمان الفلاح الاستمتا ع بحقه[3].

ب-الصناعة:أرسى محمد علي صناعة قائمة على أسس علمية، لما كان يراه من ضرورة إقامة بعض الصناعات المهمة لتقليل الاعتماد على الدول الأوروبية في شراء السلع اللازمة للجيش والأسطول، ففي نيسان (١٨١٤م)دعا العمال في كافة الاختصاصات الى التعاقد معه في مالطا، وأمر وكلاءه في العواصم الأوربية بالتعاقد مع عمال مهرة متخصصين في صناعة

(١) رافق : العرب والعثمانيون ،ص٣٩٢.

(٢) ابراهيم خليل أحمد: تاريخ الوطن العربي،ص ٢٧٨.

(٣) أحمد شلبي :التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية جـ ٥، ص٢٧٨.

النسيج، وقد تدرب على ايدي هؤلاء عمال أساتذة مصريين متخصصين في صناعة الحرير، والنسيج والسكر والالبان والطرابيش والزجاج والحبال والدباغة والورق والبارود والمنتجات الكيماوية. وقد برز رجلان فرنسيان اعطيا صناعة الغزل والنسيج في مصر شهرة كبيرة وهما الميكانيكي "جيسيب بوكتي" الذي شغل مدير مصنع النسيج والمهندس "جومل بوكتي" الذي اجرى تجارب على نوع جديد من القطن أدت الى ازدهار كبير لزراعة هذا الصنف وهما من سكان ليون. وقد تم تأسيس معامل للقطن بدأت في القاهرة سنة(١٨١٨م)، ثم آخر في بولاق فيما بعد، وقد نجحت هذه المصانع وحققت نجاحا كبيراً ليس في مصر وحدها بل في الاقطار الغربية.

وعلى الرغم من ذلك فقد ظلت الصناعة المصرية تعاني من قلة المواد الخام، ومن قلة الايدي الفنية المدربة، وعدم قيام طبقة صناعية نشيطة تأخذ على عاتقها القيام بعملية التصنيع عوضا عن موظفي الدولة[١].

جـ- التجارة: اهتم محمد علي بالتجارة وبخاصة أن الانتاج الصناعي والحرفي والزراعي كان تحت سيطرة الدولة[٢] فكان للدولة حق شراء وبيع البضائع والصابون والسكر، فاحتكرت التجارة الداخلية والخارجية كما اضطلعت بدور المورد الوحيد للبضائع المصرية إلى الأسواق الداخلية والمصدر الوحيد الى الخارج فكان تجار الفرد في المدن وسطاء يبيعون البضائع للحكومة.

وقد اقتضى ماتقدم إلى إجراء العديد من الإصلاحات حتى تتسع التجارة، فقام محمد علي بتطوير ميناء الاسكندرية بحيث يكون جاهزاً لرسو أكبرالسفن، ودفع السفن المصرية الى البحر الأحمر وشرق البحر المتوسط واعاده النظر في الطرق البرية، فأعيد افتتاح الطريق البري بين القاهرة والسويس واقيمت المحطات التجارية على طوله[٣]، وذلك طبقاً لمسايرة النظام العام لاحتكار سائر الأمور الاقتصادية من زراعة وصناعة وتجارة.

وعلى الرغم مما حققته الزراعة والصناعة والتجارة من أرباح للدولة نتيجة لاحتكارها

---

(١) ابراهيم خليل احمد: تاريخ الوطن العربي ، ص(١٤٨).

(٢) رافق : العرب والعثمانيون ، ص(٣٩٤).

(٣) بركلمان: تاريخ الشعوب الاسلامية، مجلد، ص (٥٤٥).

لهذه الأمور إلاّ أن الكثير من الفلاحين والحرفيين أصبحوا غير قادرين على تحمل الظلم، فتمردوا ولاذوا بالفرار إلى سوريا إلاّ ان الحكومة تمكنت من استعادتهم، وقمعت بقسوة الانتفاضات الشعبية في الأعوام (١٨٢٢- ١٨٢٣-١٨٢٤م)[١].

٤- الانجازات الثقافية:

لاشك ان تكوين الجيش وجهاز الدولة يحتاج الى اناس متعلمين مثقفين، لذا اهتم محمد علي بالتعليم، فأنشأ ديوان المدارس(وزارة التربية) الذي يشرف على نشر التعليم ويضع لوائحه، ومناهجه الحديثة، فأنشأ النظام التعليمي على شكل هرمي بادئاً بالتعليم العالي لحاجة الدولة في بناء الجيش والحكومة، وقد امده الأزهر بعدد كبير من الشبان المتعلمين، وكان أكثر المدرسين من الاجانب، فكانت محاضراتهم تعرب وتطبع في كتب وتوّزع عليهم مجاناً، وكانت الدولة تدفع للطلاب مرتبات شهرية [٢].

وطبقاً للسياسة التعليمية أنشأ محمد علي مدارس عدة(هي كليات) فأنشأ مدرسة الهندسة سنة(١٨١٦م)، ومدرسة الطب(١٨٢٧م) ومدرسة الصيدلة والالسن (اللغات)، والفنون والصنائع والزراعة، والطب البيطري[٣] ، وهذه المدارس(الكليات) تحتاج الى اساتذة أكفاء، لذلك انتهج محمد علي سياسة البعثات العلمية في مختلف الاختصاصات الى دول أوروبا وبخاصة فرنسا منذ سنة(١٨١٣م).

وكان لهذه البعثات فضل كبير في تنوير الأذهان من خلال تدريسهم ونشاطهم في التأليف والترجمة والصحافة، وقد بلغ عدد الطلاب الذين ارسلتهم الدولة للدراسة في أوروبا (٣١٩)طالباً . وقد ضمت عدداً من طلبة الأزهر، وكان من بينهم "رفاعة رافع الطهطاوي" الذي قام بدور كبير في النهضة الثقافية في التأليف والترجمة.

كما أنشأ محمد علي مطبعة بولاق سنة(١٨٢١م) التي طبعت كتباً وباثمان زهيدة في الآدب والعلوم، هذا بجانب طبع صحيفة الحكومة "الوقائع" التي كانت تهدف الى متابعة نشاط

---

(١) لوتسكي : تاريخ الاقطار ،ص٧٢.

(٢) ابراهيم خليل أحمد: تاريخ الوطن العربي، ص(١٤٩).

(٣) لوتسكي: تاريخ الاقطار ص(٧٤)، حتي تاريخ العرب المطول، جـ ٢ ،ص(٨٧٧)

الحكومة والاسهام في التوجيه والارشاد.

ومهما يمكن أن يقال فإن هذه المحاولات للاصلاح تمثل مرحلة هامة في تاريخ الأقاليم العربية، فهي بداية التحرك نحو التقدم والرغبة الأكيدة في السير والتطور بعد قرون طويلة من الجمود والنعاس، وهذا يعني النمو والتقدم نحو الدولة الحديثة بنقل المؤثرات الحضارية الغربية.

سياسة محمد علي العربية

واجه محمد علي تحديات إقامة الدولة الحديثة، فقام بوضع سياسة تؤدي إلى تحقيق النصر على هذه التحديات المتمثلة بالنواحي الادارية والعسكرية والاقتصادية والثقافية.

وحقق انجازات دفعت مصر خطوات كبيرة الى الأمام، ذلك طبقاً لطموحه ممادفعه إلى النظر خارج مصر فطبعها بطابع الحرص على المصلحة العربية والتمسك بحقوق العرب، واعتقد الدبلوماسيون الأوروبيون أنه يهدف إلى احياء الدولة العربية الموحدة، وقد أوضح محمد علي ذلك في حديث مع الجنرال الفرنسي" بوايية Boyer " سنة(١٨٢٥م) حيث قال له:«... ولايقف بهذا الجيش إلاّ على ضفاف دجلة والفرات، وأنه سيستولي على اليمن ومضيق باب المندب ويحتل سواكن على الساحل الغربي للبحر الأحمر، وأن جيوشه ستملأ الجزء الأوسط من بلاد العرب، وترفع اعلامها في سماء القطيف عند الخليج العربي» وتتفق هذه الأفكار مع ما ردده ابنه ابراهيم على سؤال يتعلق بالمدى الذي ستصل إليه جيوشه « إلى حدود البلاد التي يتكلم فيها الناس اللغة العربية » .[١]

ولعلسياسة محمد علي العربية ترتبط بسياسة مصر القومية والاستراتيجية، فمصر ترتبط بالسودان وكذلك بالبحر الأحمر كما ان بلاد الشام ذات أهمية كبيرة باعتبارها الجبهة الشمالية للبلاد لذلك قرر أن يكون توجهه نحو المشرق العربي لانه أراد أن تكون حملته عربية اسلامية بحته.

(١) ابراهيم خليل أحمد: تاريخ الوطن العربي، ص(١٥١، ١٥٢)

مذبحة المماليك سنة (١٨١١م)

استعان السلطان "محمود الثاني" بوالي مصر محمد علي لمساعدته في القضاء على حركة الشيخ" محمد بن عبدالوهاب" (١٧٠٣– ١٧٩٢م) والمتحالف مع أمراء الدرعية من آل السعود، والتي تمكنت من ضم الاحساء والبحرين، وتهدد البصرة وبغداد، وتمكنت من إقامة الدولة السعودية الاولى(١٧٤٥– ١٨١٨م)، علماً أن القوات العثمانية قد عجزت عن قمعها، وقد ترافق هذا مع قلق محمد علي من تزايد النفوذ البريطاني.

ولكن كيف يدفع محمد علي بجيوشه الى الخارج، وللمماليك شوكة ولو أنها ضعيفة، لكنها تستطيع القيام بالشغب واحداث فوضى هو في غنى عنها ، لذلك قرر ان يقضي عليهم قبل ان تتحرك جيوشه.

انتهز محمد علي فرصة اعداد جيوشه للسفر الى الجزيرة العربية، ودعا الاعيان والوجهاء ومن بينهم المماليك لتوديع هذا الجيش، واحتشد المدعوون في القلعة ومن بينهم المماليك، وتجمعت الجموع حتى وصل موكب المماليك الى مضيق تصعب الحركة فيه، استدار موكب الجنود واستعد من كانوا كامنين، وهطل الرصاص من كل جانب على المماليك وعملت السيوف عملها، فلم ينج من موكب المماليك أحدٌ تقريباً ، ثم صدر القرار بالقضاء على من لم يحضر الاحتفال[1] وبذلك قضى محمد علي على عدو داخلي كان يرى فيه عدواً متربصاً له ولنظامه.

نشاط محمد علي في الجزيرة العربية (١٨١١–١٨١٨م)

استفحل أمر الحركة الوهابية في مطلع القرن التاسع عشر، وكانت الحركة تقوم على تجديد الاسلام وتخليصه مما لحق به من الأوهام والبدع . والحركة رد فعل وعودة الى الدين الاسلامي النقي واستمد محمد بن عبد الوهاب الهامه من ابن حنبل كما شرحه ابن تيمية[2] والتعلق بصفاء العقيدة بالاعتماد على القرآن .

---

(١) أحمد شلبي: التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية جـ٥،ص (٢٨٠).

(٢) حتي: تاريخ العرب المطول جـ٢، ص (٨٧١). جب : الاتجاهات الحديثة في الاسلام، ص (٥٢ ، ٥٥)

فالحركة الوهابية تدعو الى القضاء على التوسل بالأولياء، فقام أتباعها بهدم المزارات وحاربوا التدخين والموسيقى والصوفية والدروشة ودعوا الى الكفاح بلا هوادة ضد الشيعه.

ولعل هذه الحركة كانت تهدف الى طرد الاتراك وتوحيد الاقطار العربية تحت راية الاسلام[1]

أثارت سياسة محمد علي العسكرية السلطان العثماني "محمود الثاني" (١٨٠٨-١٨٢٩م)، فخشي من وجود الجيش المصري، ففكر في استخدامه في ضرب القوى الثورية التي نشأت في نجد، وخشي محمد علي من التهرب من هذه المهمة، ورأى فيها مد نفوذه وحكمه الى اقليم جديد من العالم العربي [2] هذا بالاضافة الى التخلص من الجنود الألبانيين الذين كانوا يثيرون له المتاعب بتمردهم [3]

أعدّ محمد علي حملة ووضع على رأسها ابنه "طوسان"، ولما تعثر طوسان في الانتصار لحقه محمد علي (١٢٣٠هـ- ١٨١٥م) ثم عاد، وعقد طوسان صلحاً في رجب (١٢٣٠هـ) وتموز (١٨١٥م) مع الوهابيين ثم عاد الى مصر حيث مات.

نقض الوهابيون الصلح، فأرسل محمد علي ابنه ابراهيم الذي استطاع احتلال الدرعية (عاصمة الوهابيين) بعد حصار دام ستة اشهر في ايلول سنة (١٨١٨م) جمادي الاول (١٢٣٣هـ) واخمد الحركة بعد ان اسر امير الدرعية "محمد بن سعود" الذي لاقى حتفه في اسطنبول.

وتحركت القوات المصرية بقيادة "خليل باشا" لتقضي على فلول الوهابيين في عسير والساحل الشمالي لليمن، وتمكنت هذه القوات من الاستيلاء على اليمن وأعادتها الى حكم الائمة الزيديين في صنعاء بعد ان طردهم الوهابيين عنها، وعين محمد علي" ابراهيم يكن باشا" واليا على اليمن، فاتخذ الحديدة مركزًا لادارته.

وبذلك أقام المصريون إدارة منظمة أتاحت استقراراً نسبياً لم تنعم به من قبل واكتسبوا

---

(١) رافق: العرب والعثمانيون، ص٣٩١، لوتسكي، ص٩٧.

(٢) جلال يحي: العالم العربي الحديث (المدخل)، ص (١٠٠).

(٣) أحمد شلبي: التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية، جـ٥، ص(٢٧٩)

أعوانا كثيرين وفي مقدمتهم امام صنعاء الزيدي[1]

ولعل من نتائج هذه الحملة التقاء العرب والاندماج بين ابناء الاقليمين داخل وحدة ادارية موحدة واصبح ابناء الجزيرة يجندون في وحدات متعددة من الجيش المصري[2].

نشاط محمد علي في السودان(١٨٢٠م).

تجمعت دوافع عدة عند محمد علي لضم السودان، فالاقليمان (مصر والسودان) وحدة طبيعية يربطهما نهر النيل اقتصاديا وجغرافياً، وراوبط تاريخية منذ عهد الفراعنة بالاضافة الى القضاء على الفارين من المماليك والقضاء على من تبقى من الألبانيين واحلال السودانيين محلهم في جيشه[3]، علاوة عن البحث عن الذهب الذي هو في أمس الحاجة إليه، كما لاننس دعوة السوادنيين له لضم بلادهم لوضع حد الى الفوضى التي نشبت من القوى المحلية[4].

أعد محمد علي جيشاً برياً بقيادة ابنه اسماعيل، ورافق الحملة مجموعة من علماء الشريعة ليدعوا المسلمين في السودان الى الوحدة والمؤاخاة ودعوة غير المسلمين الى دين الله.ثم أرسل محمد علي جيشاً ثانياً بقيادة ابنه ابراهيم فسار محاذيا للنيل الابيض بينما سار اسماعيل محاذياً للنيل الازرق. ولكن سرعان ما عاد ابراهيم بسبب مرضه، ومات اسماعيل في مؤامرة دبرها له" نمر ملك شندي".

أرسل محمد علي صهره "محمد الدفتردار" للانتقام من" نمر شندي" فلم يظفر به فقد فرّ تجاه الحبشه. وأسس القائد المصري "محمد الدفتردار" مدينة "الخرطوم" سنة (١٨٢٢م) عند ملتقى النيل الازرق بالنيل الأبيض.

وقد استطاع محمد علي أن يوطد الأمن ويحقق الوحدة الوطنية وادخل كثيراً من مظاهر الحياة الحديثة الى السودان، واشرك السودانيين في شؤون الحكم والادارة، فانفق

---

(١)ابراهيم خليل أحمد: تاريخ الوطن العربي.ص (١٥٥)، غرايبة: مقدمة في تاريخ العرب الحديث جـ١، ص (٣٠٧).

(٢) جلال يحي: العلم العربي الحديث (المدخل). ص، (١٠٣).

(٣) شلبي: التاريخ الاسلامي. ص،(٢٨١).

(٤) ابراهيم خليل: م .ن، ص (١٥٩).

بسخاء لتحديث السودان وانعاشها اقتصادياً وثقافياً بتعليم أبنائه [1].

كما بدأ السودانيون يشتركون في وحدات الجيش المصري فزاد التقارب بين أبناء الاقليمين في الشؤون الاقتصاديه والاجتماعية والثقافية [2]. وبذلك حققت الحملة الصلة السياسية بالاضافة الى ماتقدم بين القطرين الشقيقين.

حرب محمد علي في اليونان سنة(١٨٢٣م)

قضى السلطان "محمود الثاني" على الانكشارية، فأصبحت الدولة بدون جيش تقريباً، وفي هذا الظرف قامت ثورة في اليونان ضد الدولة، فاستعان الباب العالي بوالي مصر محمد علي لاخماد الثورة. قبل محمد علي المهمة، وكانت تقوده في ذلك مصالحه الخاصة التي تجعل منه ندا للباب العالي بعد أن كان تابعاً، هذا الى جانب تقديراته واهدافه السياسية [3]. وهو بالتالي لديه القدرة على التأثير في مجرى تاريخ العالم [4].

جهز محمد علي جيشاً واسطولاً كبيراً بقيادة ابنه "ابراهيم باشا" وفي تموز (١٨٢٤م) غادر الجيش البالغ (١٦) الف محارب على ظهر مائه ناقلة وبصحبة (٦٣) سفينة حربية وتوجه بادئ الأمر الى جزيرة" كريت" حيث أخضعها ونظم الأمر فيها وجعلها قاعدة للعمليات القادمة وفي شباط سنة(١٨٢٥م) نزل المصريون في جنوب غرب "المورة" واستولوا على: مدونوكورون ونفارين. ثم استولوا على تريبولس (عاصمة مورة)، واسروا آلاف الا شخاص وأرسلوهم الى مصر، ولم ينته عام (١٨٢٥م) حتى فتحت الموره برمتها. ثم توّجه الى أواسط اليونان، فاستولى على أثينا، فاخمدت الثورة اليونانية إلاّ من بعض المقاتلين المبعثرين في الجبال [5] وعين ابراهيم باشا والياً على المورة [6].

---

(١) ابراهيم خليل أحمد: تاريخ الوطن العربي، ص (١٥٩).

(٢) جلال يحي: العلم العربي، ص (١٠٠. ١٠٣).

(٣) شلبي: الحضارة الاسلامية. حـ٥، ص٢٨٢.

(٤) لوتسكي: تاريخ الاقطار العربية الحديث ص (١١٩)

(٥) لوتسكي: تاريخ الاقطار العربية الحديث، ص (١١٩- ١٢٠)

(٦) أحمد شلبي: التاريخ الاسلامي حـ٥، ص (٢٨٢).

تدخل الدول الكبرى

وفي عام(١٨٢٥م) أخذت الدولة الروسية في عهد" نيقولاي الأول" تميل الى تقديم مساندة فعالة لليونان، فشاركت انكلترا بالتدخل للقيام باعمال مشتركة ، ووقع في(٤ نيسان سنة١٨٢٦م) بمدينة بطرسبرغ برتوكولاً بشأن التدخل المشترك في اليونان للحصول على الاستقلال الذاتي من السلطان، بما في ذلك حرية التجارة والحرية الدينية والاستقلال الاداري، وبمعنى أخر أن تبقى اليونان شكلياً في عداد الدولة العثمانية، وقد كانت الدولتان تهدفان الى بسط حمايتهما على اليونان.

ولكن هذه الاتفاقية بقيت حبراً على ورق بسبب رفض السلطان محمود الثاني بحزم جميع مطالب الانكليز والروس، كما لم تكن الدول الأوروبية متأهبة لاسناد مطالبها بالتدخل المسلح.

وفي (٦ تموز سنة١٨٢٧م) وقعت في لندن معاهدة بين روسيا وانجلترا ثم انضمت فرنسا الى الكتلة وقررت الدول الثلاث فصل اليونان المدني عن تركيا، وجاء في متن هذه المعاهدة «يوافق الباب العالي خلال شهر على هذه الاتفاقية والاّ فيجبر على ذلك بالقوة»[1]. رد الباب العالي مجددا ًبالرفض على طلب الدول، وعندئذ أي في (٢٠ تشرين الأول سنة(١٨٢٧م)دخل اسطول انجلترا بقيادة "كارينغتون ، واسطول فرنسا بقيادة "ده رينيه"، وروسيا بقيادة "هايدن"، وكان لدى الاسطول الموّحد(٢٦)سفينة ولدى ابراهيم باشا (٩٤) سفينة حربية، ودخل الاسطول الموّحد خليج "نفارين" حيث ترسوا القوات الاساسية، واعتماداً على التفوق العددي شرع ابراهيم أولا في المعركة التي انتهت بابادة الاسطول المصري والتركي خلال ثلاث ساعات ، ولم ينج سوى سفينة واحدة و(١٥) سفينة مساعدة صغيرة، وأصبح الجيش المصري منقطعاً عن قاعدته الاساسية(مصر)في فاضطر الى الجلاء عن موره.

وفي ٩ آب سنة (١٨٢٨م) وقع محمد علي اتفاقاً في الاسكندرية بشأن جلاء القوات المصرية عن موره، واعادة الأسرى اليونانيين، وفي ايلول من العام نفسه بدأ جلاء المصريين[2].

---

(١) لوتسكي: تاريخ الاقطار العربية ص (١٢٢).

(٢) لوتسكي: تاريخ الاقطار العربية الحديث، ص (١٢٢) انظر بركلمان: تابع تاريخ الشعوب ص(٥٤١).

وبموجب صلح" أدرنة" (١٤ ايلول ١٨٢٩م) منحت اليونان الاستقلال، بعد أن خسرت مصر في حربها حوالي ثلاثين الفاً من الجنود ونفقات باهظة الى جانب اسطولها[١].

محمد علي وبلاد الشام (١٨٣١م)[٢]

عادت الجيوش المصرية من اليونان بخسارة فادحة، وكان محمد علي ينتظر تعويض تلك الخسائر، واتجهت اطماعه لبلاد الشام، فطلبها من الباب العالي مقابل جزية كبيرة، فرفض طلبه لانه يعمل على اتساع سلطانه ومد ملكه، فاستمد محمد علي من هزيمته تحدياً جديداً فكان أن وكل ابنه ابراهيم باعادة بناء اسطول بحري قوى بدلاً من الأسطول الذي خسره في اليونان[٣].

وتجمعت عدة عوامل ساعدت على تطلعه لضم بلادالشام لملكه، فقد أدرك ضعف السلطان والدولة[٤]، كما أحس بحاجة الوطن العربي لمن يحرك وجدانه القومي في التحرر والانعتاق من العثمانيين[٥]، فضلاً عن طموحه الشخصي الذي كان يرى في بلاد الشام أنها مكملة ومتممة لمصر، وضمّها يمد مصر بطاقة بشرية واقتصادية.

انتهز محمد علي كثرة القلاقل والاضطراب بعد هروب "بشير شهاب" وزاد حماسه للأمر ما كان يفعله والي عكا "عبدالله باشا" من استقباله للفارين من مصر، وهكذا تجمعت لديه الدوافع في ضم بلاد الشام.

ضم بلاد الشام:

توجهت الحملة المصرية بقيادة ابراهيم بن محمد علي باتجاه غزة في تشرين الاول عام (١٨٣١م)، فاحتلت غزه ويافا وحيفا، ثم سقطت عكا بعد حصار ستة اشهر في (٢٧ أيار

(١) احمد شلبي: التاريخ الاسلامي، جـ٥، ص (٢٨٣).

(٢) انظر الى: مذكرات تاريخية عن حملة ابراهيم باشا على سوريا لمؤلف دمشقي مجهول تحقيق أحمد غسان سبانو، دمشق : دار قتيبه سنة (بلا).

(٣) المرجع السابق، ص(١٢)مذكرات.

(٤) لوتسكي:ص(١٢٤).

(٥) ابراهيم خليل احمد: تاريخ الوطن العربي، ص (١٦٠).

١٨٣٢م)، وسقطت دمشق دون مقاومة، ثم اتجهت نحو حمص حيث وقعت أول معركة مع الأتراك في تموز سنة(١٨٣٢م) ، كان النصر فيها لابراهيم باشا الذي تابع زحفه الى حماهوحلب، واتجه نحو مضيق" بيلان"، حيث تجمعت القوات التركية بقيادة "حسين باشا" التي هزمت في (٢٩ تموز١٨٣٢م)، وتابع المصريون تقدمهم فاستولوا على "أضنه".

خلع السلطان "محمود" القائد حسين وعينّ بدلاً منه رشيد محمد، وزوّده بجيش بلغ ستين الف مقاتل، وواجه ابراهيم باشا ومن معه الذين يبلغون ثلاثين الفا في "قونية" حيث تمكنت براعة القائد المصري من تحقيق النصر[1] . طلب السلطان محمود مساعدة الدول الأوروبية،فكانت فرنسا منحازة لمصر، وبريطانيا تسعى للمصالحة بين الطرفين بينما وقفت روسيا بجانب السلطان وأنذرت محمد علي بالتدخل، ووعد الأخير بوقف العمليات العسكرية إلاّ أن الاضطرابات قد وقعت في مناطق التماس ، فاحتل ابراهيم "كوتاهيه" في (٢-٢-١٨٣٣م. مما اجبر السلطان على طلب المعونة من روسيا، فسارعت بارسال اسطولها الى مياه البسفور، وقامت بانزال عشرين الف عسكري على الشاطئ الآسيوي من البسفور، وأرسلت فيلقاً آخر بطريق البر الى اسطنبول .

أجبر التدخل الروسي كلاً من فرنسا وانجلترا للسعي لمصالحة محمد علي مع السلطان فتم صلح "كوتاهية " في (٤ أيار سنة ١٨٣٣م)، وبموجبه أصدر السلطان فرماناً بتثبيت محمد علي على مصر والجزيرة العربية والسودان وكريت ويكون هذا وراثياً لمحمد علي، وتبقى بلاد الشام تحت حكم ابراهيم باشا لمدة أربع سنوات شريطة ان يبقى محمد علي تابعاً للسلطان، وجلاء القوات المصرية عن الأناضول[2]، وكان على محمد علي الجلاء من الأناضول والاعتراف بالسلطان .

رحب السوريون بالمصريين وبخاصة أن ابراهيم باشا قام بالاصلاحات العديدة فأعاد تنظيم الدولة اداريا ً، باعتماده على المركزية في الحكم، وزاد في تنشيط التجارة الداخلية والخارجية، وأجرى اصلاحات في التعليم واعتمد على اللغة العربية فيه ، وجلب أول مطبعة في

---

(١) مذكرات تاريخية عن حملة ابراهيم باشا على سوريا، ص (١٥).

(٢) المصدر نفسه ص (١٦)، لوتسكي : تاريخ الاقطار العربية الحديث، ص (١٢٩).

لبنان عام(١٨٣٤م)، ونشط الزراعة، وقام بزيادة المساحات الزراعية من الفين الى سبعة آلاف فدان وشجع انشاء القرى الجديدة، ووطن البدو، كما حصر الجمارك وجعلها بيد السلطة[١].

اعتمد ابراهيم باشا في حكمه على القوى السياسية والاقطاعية الموجودة، فاعتمد على الأمير بشير الشهابي في منطقة لبنان وشيوخ عبد الهادي في منطقة نابلس[٢].

وهكذا رحب السوريون لما تم من اصلاح ومساواة كانوا يفتقدونها، وفتحت البلاد للارساليات الغربية لكن ابراهيم فرض الضرائب، وجعل التجنيد الاجباري في البلاد استعداداً للحرب وأخذت تركيا تؤيد الثورة ضده ، فقامت عدة ثورات بزعامة رجال الاقطاع وكان اولها واخطرها ثورة "الفلاحين" في فلسطين ثم ثورة "الدروز"[٣]، وجبل لبنان وتتابعت الثورات هنا وهناك لكن ابراهيم قضى عليها.

ولمّا شعر محمد علي بدور تركيا في ذلك أعلن استقلاله في أيار سنة(١٨٣٨م)وجاءت فترة انتهاء مدة ابراهيم باشا في سوريا، فأخذ محمد علي يتباطأ في تنفيذه المعاهدة والانسحاب.

ساندت بريطانيا السلطان محمود ضد محمد علي مما شجعه على بدء القتال، فتم اللقاء بين الطرفين في (٢٤-٦-١٨٣٩م) بالقرب من" نصيبين"حيث كان النصر حليف ابراهيم بن محمد علي وأصبح الطريق الى اسطنبول مفتوحة لكنه لم يفكر بهذه المغامرة.

تدخل الدول الأوروبية ومعاهدة لندن (١٨٤٠م)

توفي السلطان محمود وتولى بعده السلطان "عبد المجيد"، وخافت دول أوروبا من قوة محمد علي، فأخذت روسيا وبروسيا وانجلترا وفرنسا في اجراء المشاورات حول الوضع الذي وصل اليه محمد علي واخذوا يهددونه ،واستمرت المشاورات مايقرب العام، فأبرمت اتفاقية بين الدول الكبرى وتركيا في لندن عام (١٨٤٠م) ، قررت بموجبها حصرمحمد علي وممتلكاته بمصر وراثياً له ولأولاده واعطاءه ادارة ولاية عكا مدى حياته فقط على أن يعلن قبوله

(١) مذكرات تاريخية، ص(١٦) ابراهيم خليل أحمد : تاريخ الوطن العربي، ص (١٦٠). لوتسكي: تاريخ الاقطار، ص(١٣٢).

(٢) مذكرات تاريخية عن حملة ابراهيم باشا على سوريا (ص ١٦-١٧).

(٣) المصدر نفسه عن حملة ابراهيم باشا على سوريا ص (١٩). لوتسكي، ص (١٣٥).

للاتفاق خلال عشرة ايام[1] وإلا انحصر حقه بمصر وحدها.

رفض محمد علي ماجرى في لندن، مما حدا بانجلترا وبروسيا وتركيا لبدء عمليات مشتركة، فانزلت قوات في بيروت في(١١-٩-١٨٤٠م) قوامها "١٥٠٠ "جندي انجليزي و"٧٠٠٠-٨٠٠٠" تركي، ثم وقعت أولى المعارك في (١٠-١٠-١٨٤٠م) سحب ابراهيم قواته على أثرها، وتابع الحلفاء مد سيطرتهم على الساحل فسقطت عكا في (٣-١١-١٨٤٠م)، وقطع الطريق الساحلي على قوات ابراهيم باشا وعلى تموينها، ثم قام الاسطول الانجليزي بالاقتراب من الاسكندرية مهدداً .

شعر محمد علي بأنه لايستطيع الاستمرار، مما حدى به للتوقيع على " اتفاقية لندن" التي تقضي ببقائه في مصر فقط ، وبذلك اصدر مرسوماً في(٢٩-١١-١٨٤٠م)بالجلاء الفوري عن بلاد الشام.

وتمت تسوية القضية في أول حزيران عام(١٨٤١م) فصدر مرسوم سلطاني ببقاء محمد علي باشا بمصر والسودان، وأن لايزيد جيشه عن (٢٨) الف جندي، وعدم بناء السفن الحربية على أن يدفع للدولة ضريبة سنوية مقدارها(٤٠٠) ألف جنيه[2].

محمد علي في الميزان:

اختلف المؤرخون في تقييم محمد علي، فيرى البعض أنه حاول تسخير امكانات مصر والشام والحجاز لمصلحته، فلم يحاول أن يتفاعل مع الأمة العربية اجتماعياً وسياسياً ، وكل ماجرى هو اقرب الى التسخير منه الى التعاون، وكذلك يرون فيه الحاكم المتسلط[3].

ويرى آخرون أنه مؤسس مصر الحديثة الذي بنى الجيش الوطني ثم أنه حاول ايجاد امبراطورية عربية وحدت منطقة الشرق الأدنى على أسس تقوم على تجربة سياسية عميقة، وقد حققت هذه السياسة نتائج في شتى الميادين السياسية والاجتماعية والاقتصاديةوالثقافية، إذ حققت سياسته الاجتماعية بالمساواة في الحقوق والواجبات دون النظر الى الدين والعرق،

---

(١) ابراهيم خليل أحمد: تاريخ الروطن العربي ، ص (١٦٤). لوتسكي: ص (١٤١).

(٢)مذكرات تاريخية،ص(١٩ ، ٢١)لوتسكي(١٤٣).

(٣) شلبي: التاريخ الاسلامي، جـ٥، ص (٢١٦).

باعتباره أن الجميع عرب ورعايا للدولة ، ونشوء فكرة المواطن المرتبط بالارض.

ويتضح دور محمد علي من الناحية الثقافية بانشاء المدارس المتنوعة، وأدخال المطبعة، ونشر الكتب، وارسال البعثات العلمية لدول اوروبا ، وأدخال الصناعات المتعددة، وأقامة المشاريع الزراعية الكثيرة.[1]

هذا فضلاً عن محاولته بناء دولة عربية موحدة، وهذه تجربة فريدة في تاريخ العرب الحديث، وقد كانت هذه التجربة السبب الرئيسي وراء تألب الدول الاستعمارية الكبيرة ضده لاحباط مشاريعه[2] فأنزلت ضربة قاضية ببرامج الاستقلال[3] ولعل مما ساعد على ذلك، عدم توفر الوعي الوطني والقومي لدى الشعب العربي على مستوى الآمال والتاريخ في إقامة الدولة العربية الواحدة.

محمد علي وخلفاؤه

لقد أجهدت الحروب ونتائجها اعصاب محمد علي، فاختلط عقله واعتزل، او عزل في أيار سنة(١٨٤٨م) ومات في العام التالي (شهر آب).

ابراهيم بن محمد علي

تولى بعد ابيه في أيار من سنة (١٨٤٨م)، وقد كان القائد الذي حقق الانتصارات في الجزيرة العربية واليونان وبلادالشام، وخير منفذ لخطط والده، وحكم مدة ستة أشهر(من أيار- تشرين٢) ومات بعد والده بثلاث أشهر.

عباس بن طوسون بن محمد علي(١٨٤٨-١٨٥٤م)

تولى بعد عمه ابراهيم، وكان على عكس جده فأخذ يعمل بسياسة تؤدي لعودة الشعب الى الوراء، فاقفل المدارس والمصانع، وتقرب الى الدولة العثمانية، فساعدها في حروبها طمعاً

(١) جلال يحي: العالم العربي الحديث. ص (١٠٧).

(٢) ابراهيم خليل أحمد: تاريخ الوطن العربي، ص (١٦٦).

(٣) لوتسكي: تاريخ الاقطار العربية الحديث ص (١٤٤)،حتي : تاريخ العرب جـ٢، ص (٨٨٢).

في أن تجعل الحكم لأكبر أبنائه بدلاً من أكبر افراد العائلة، وقد سمي حي القاهرة باسمه بعد أن كان اسمه " الريدانيه " وقد قتل سنة(١٨٥٤م) في قصره.

سعيد (١٨٥٤-١٨٦٤م)

حكم مدة عشر سنوات، كان كثير التردد، شديد الثقة بالأوروبيين، فأرسل حملة الى المكسيك لمساعدة فرنسا لصداقة شخصية بينه وبين نابليون الثالث.

واكثر من منح الامتيازات للأجانب، وقد أكثر من الأستدانة ما جر المتاعب على مصر، وهو الذي منح امتياز شق قناة السويس بشروط مجحفة، وقد استطاع "دليسيبس" خداعه بالأماني، فأعطاه (١٥٪) من الأرباح، ولكن سرعان مافقد هذه الأرباح بسبب الديون المتراكمة، وقد كلفت القناة (١٨) مليون جنيه دفعت مصر(١٧) مليون وكان امتيازها لمدة(٩٩) سنة لولا الارادة المصرية التي مثلها الرئيس "جمال عبد الناصر" فقام بتأميمها في تموز سنة (١٩٥٦م). وبالرغم من اصلاحاته التي تمثلت باصدار قانون الأراضي التي تبيح ملكية الأرض، والغاء الاحتكار الزراعي، و بناء خط سكة الحديد بين الاسكندرية والقاهرة، والمساواة في تجنيد الاشخاص بحيث يجند الجميع دون استثناء الا أن السلبيات طغت على اعماله الايجابية [1].

الخديوي اسماعيل (١٨٦٤- ١٨٧٩م)

تولى بعد عمه" سعيد" وكان قد تولى أكبر المناصب في عهده، ومن أعماله الايجابية تنظيم مسألة وراثة العرش بينه وبين الدولة العثمانية، وكذلك تبعية السودان وعلى حق مصر في سن القوانين الداخلية.

هذا فضلا عن عقد الاتفاقات الجمركية، والمعاهدات التجارية، وزيادة الجيش دون إذن تركيا، والاهتمام بالتعليم فأكثر من المدارس، وانشأ دار العلوم سنة(١٨٨٣م) وأنشأ دارالكتب ودار الاثار المصرية، وقضى على تجارة الرقيق في السودان، ووسع حدود الدولة فشملت "دار

---

(١) شلبي: التاريخ الاسلامي، جـ٥، ص (٢٧٧-٢٧٨).

فور، والفاشر، وزيلع، وسواكن ومصوع والصومال الشمالي "وبسط حمايته على مملكة أوغندة والأراضي الواقعة حول بحيرة فكتوريا وبحيرة ألبرت، وحاول ضم الحبشة وكاد ينجح لولا خيانة بعض قادته وبذلك حرر مصر من الأغلال، ورفع اسم مصر في معرض عالمي عقد في باريس سنة(١٨٦٧م)، واشترك في موتمر البريد الدولي .

ويؤخذ عليه أنه أكثر من الاستدانة بسبب كثرة القصور والحفلات والهدايا التي وزعها تشبها بحكام أوروبا فبلغت الديون(٩٦)مليوناً وأدى هذا إلى تدخل الدول الأوروبية في شؤون مصر الداخلية بفرض المراقبة على مصر وانشاء المحاكم المختلفة [1] ؛ مما ادى بالبلاد الى الوراء، وانتهت هذه الأزمة بخلع الخديوي في حزيران سنة (١٨٧٩م) لسوء ادارته وتبذيره وظلمه وجشعة وبقي في اوروبا حتى سنة (١٨٨٨م) ثم انتقل الى اسطنبول حيث مات سنة (١٨٩٥م)وتولى بعده ابنه توفيق [2].

---

(١) شلبي التاريخ الاسلامي جـ ٥ ص (٢٨٩-٢٨٠٠).

(٢) المرجع نفسه ص (٢٨٩-٢٨٠٠).

الفصل الثالث

*الاستعمار الفرنسي في افريقيا العربية
*الاستعمار الاوروبي في مصر
*الاستعمار البريطاني في سواحل الجزيرة العربية
*الاستعمار الايطالي في ليبيا
*محاولات الاصلاح في الدولة العثمانية
واثرها على الوطن العربي



الفصل الثالث
الاستعمار الفرنسي في افريقيا العربية

اقطار المغرب العربي

استطاعت الدولة العثمانية السيطرة على القطر الجزائري منذ عام(١٥١٨م)، الا ان الجزائر كانت تتمتع بسلطات خاصة، وذلك بسبب استقلال «داي الجزائر » حيث كان يحق له عقد المعاهدات مع الدول الاجنبية دون الرجوع الى السلطان العثماني، كما كان ينتخب ويباشر سلطاته دون مشاورة السلطان، كما كانت ايرادات القطر تصرف عليه مباشرة.

الا ان الجزائر اصيبت بنكسات متتالية خلال القرن الثامن عشر، وذلك بسبب كساد التجارة، ومقاومة الدول الاوروبية لها ،كما حدثت نزاعات داخلية بين الدايات انفسهم، وبينهم وبين قادة الجيش وقادة القراصنة، فأدى كل ذلك الى اضطراب الامن، وفقدان التقدم، وهذا دفع الدايات الى عقد معاهدات مع الدول الاوروبية، مما أتاح مجالاً لدخول النفوذ الاوروبي على حساب استقلال البلاد ومصلحة السكان.

هذه ظروف الجزائر قبل دخول الاستعمار الفرنسي، اما ظروف فرنسا فقد كانت تتمثل في اضطراب الأحوال الداخلية، حيث تولى الحكم" شارل العاشر" عام (١٧٢٤م)، وكان هذا يتمتع بروح رجعية، مما جعل الشعب يسخط عليه وزاد الامر سوءاً تولية"بولينياك" رئيساً للوزراء، وهوالمشهور باحتقاره للدستور والحياة النيابية، لذلك تطلع شارل الى احراز نصر خارجي لصرف نظر الناس عما يحدث في الداخل، وكان رأيه أنه اذا قام بمظاهرة حربية مكررة في الجزائر لما كانت تتمتع به من خيرات، سوف تزيد من الشعور الوطني والتفاف الناس حول الملك وتعطل انفجار الثورة ضده.

هذا بالاضافة الى ان كبار المتنفذين والملاك في فرنسا كانوا يتطلعون الى امتلاك اراض جديدة، لتدر عليهم اموالاً تعوض عما فقدوه اثناء الثورة الفرنسية، وحروب نابليون وفي معاهدة الذل عام(١٨١٥م) في باريس، حيث فقدت معظم اجزاء امبراطوريتها بعد التغلب على

نابليون، حيث تنازلت عنها الى انجلترا [1].

كانت العلاقات الجزائرية الفرنسية قبل عام (١٨٢٦م) جيدة، على عكس علاقتها مع انجلترا التي كانت علاقة عدائية.

ولكن الصراع الخفي بين فرنسا والجزائر كان يتمثل بالعداوة للاتجاه الصليبي الذي كانت تمثله فرنسا منذ الحروب الصليبية، حيث كانت فرنسا تتزعم الجناح الكاثوليكي في اوروبا، والجزائر تتزعم الجناح الاسلامي في شمال افريقيا .

لذلك فان فرنسا عندما اتجهت لتهاجم الجزائر، لم تجد المقاومة الاوروبية التي وجدتها في الحروب النابليونية في اوروبا . هذا على الرغم من انفراد فرنسا بمحاولة سيطرتها على الجزائر،إلا انها ادعت عدة ادعاءات كاذبة مبررة الزحف نحو الجزائر منها انها أوهمت الدول الاوروبية بانها تدافع عن قضية اوروبية بقضائها على تهديدات الجزائر للاوروربيين ومعاداتها للمسيحيين، واستمرار تجارة الرق فيها .

ومن المؤكد ان العامل الديني كان هو العامل الاقوى في سيطرة فرنسا ومد نفوذها نحو الجزائر، ذلك انه بعد حادثة صفع "الداي" بمنشة على وجه" القنصل"وتفصيلهاان" الداي " سأل القنصل الفرنسي عن سبب عدم الرد على رسالته الموجهة الى "وزير الخارجية الفرنسية"، فرد عليه القنصل بجفاء، فأشاح" الداي" بمنشة كانت بيده في وجه القنصل، فبالغ هذا بأن صوّر لحكومته ان الداي صفعه على وجهه رغم ان "الداي "أكد ان ذلك لم يحدث"استغلت فرنسا هذه الحادثة، فكتب وزير الحربية الفرنسية رسالة الى شارل العاشر يقول فيها: "لقد ارادت العناية الالهية ان يستثار جلالتكم بشدة في شخص قنصلكم بواسطة أكثر اعداء المسيحيين. وقد اثبت ذلك الاتجاه الصليبي المتأصل لدى الحكومة الفرنسية، ان قسيساً قال في صلاة لقائد الحملة عند احتلال الجزائر« لقد فتحت باباً للمسيحين في افريقيا » [2].

---

(١) د. زاهر رياض: شمال افريقيا في العصر الحديث ص(١٦٩).

(٢) د. صلاح العقاد مصر سابق، ص(٤-٥).

ويمكن تلخيص اسباب استعمار فرنسا للجزائر بما يلي:-

١- اسباب اقتصادية: حيث كانت فرنسا تطمع بخيرات الجزائر وتنظر اليها بسبب غناها الواسع لاتخاذها سوقاً جديدة لتصريف مصنوعاتها، سيما وان فرنسا كانت ترزح تحت دين للجزائر، وهي أموال كانت قد دفعتها الجزائر ثمناً لمشتريات القمح خلال اوقات فرنسا العصيبة اثناء الثورة الفرنسية، وكان هذا الدين حوال "٨ مليون فرنك فرنسي" [١] .

٢- رغبة فرنسا في بسط النفوذ المسيحي على افريقيا، حيث ان آثار الحروب الصليبية لاتزال تفعل فعلها لدى فرنسا.

٣- التعويض عما خسرته من المستعمرات بعد حروب نابليون الطويلة وتنازلها الى بريطانيا عن كثير من مستعمراتها.

٤- صرف نظر الشعب الفرنسي عن الاخطاء الداخلية لحكومة" شارل العاشر" الرجعية، والعمل على استعادة امبراطورية فرنسية جديدة مما يجعل شارل بطلاً قومياً بغض النظر عما يفعله في الداخل.

٥- القضاء على خطر بحرية الجزائر التي كانت تسيطر على جزء كبير من تجارة البحر المتوسط .

وان فرنسا والدول الاوروبية قد تذرعت بضرورة القضاء على القراصنة وضرورة تأمين المواصلات والتجارة في ذلك البحر، اذ ان الاسطول الجزائري كان مسيطراً على البحر الابيض المتوسط، وكان "داي" الجزائر يفرض الاتاوة على السفن الماخرة عباب البحر وعلى طول الشواطئ الجزائرية على مختلف راياتها وجنسياتها[٢].

٦- السبب المباشر الذي أدعته فرنسا وهي حادثة منشة" الداي حسين"، في وجه القنصل الفرنسي والذي ذكرناه سابقاً .

---

(١) د. جلال يحي: العلم العربي الحديث المدخل ص ١٢٨.

(٢) د.زاهية قدورة: تاريخ العرب الحديث ص(٤٩٤).

احتلال الجزائر

استغرق غزو الجزائر ثلاث سنوات، حيث بدأ بالحصار البحري في ١٦ حزيران(١٨٢٧م)الى ١٩ حزيران (١٨٣٠م) .

وقد اعتبر" داي" الجزائر ان الحصار هو اعلان حرب رسمي موجه اليه اكثر منه مناورة حربية للضغط عليه، لكن "الداي" رفض الاعتذار، وكان قد شيع آخر زورق حمل ضابطا فرنسياً يطلب الاعتذار بالقنابل.

واخيراً فان فرنسا قد صممت على ارسال حملتها الى الجزائرمن اجل الاحتلال، وهو الحلم الذي كان يراود الفرنسيين منذ بداية القرن التاسع عشر، وان الذرائع التي ادعتها فرنسا ماهي الا تغطية ديبلوماسية لتبرير الاحتلال.

نزل الجنود الفرنسيون في ١٩ حزيران (١٨٣٠م)في ميناء" سيدي فرج" واستولوا على مدينة الجزائر في العام نفسه مما اضطر الداي ان يستسلم بمعاهدة عقدت بين الطرفين جاء فيها[1]ان" للداي "الحق بالاقامة في المحل الذي يرغب، وان تعطى الحرية للديانة الاسلامية، ومنح الحماية لقواد العسكر الجزائريين وهي نفس الحماية التي منحت للداي .

الا ان الفرنسيين استغلوا هذه المعاهدة أبشع استغلال بان انقضوا على المدن بوحشية، واشاعوا السلب والنهب والفساد وقتل المواطنين بالجملة، وحرق المدن والمزارع.

وقد احتل الفرنسيون المدن الجزائرية المدينة تلو الاخرى على الرغم من المقاومة البطولية التي ابداها السكان طوال فترة الاحتلال الفرنسي للجزائر، حتى ان "قسنطينة " وحدها قاومت عدة سنوات لم يستطع خلالها الاستعمار دخول المدينة.

وقد تميزت المقاومة الجزائرية عبر السنين بكفاح شعبي بطولي متين لم ترضخ خلالها الجزائر للحكم الاستعماري، وكانت اضخم تلك الثورات هي ثورة:.

الامير "عبدالقادر الجزائري"

توجه عدد من العلماء، والعقلاء لاختيار امير تتجمع فيه صفات القيادة فكان اختيار السيد" محيي الدين وابنه عبد القادر"، الذي اصبح فيما بعد يعرف بالامير" عبد القادر

---

(١) الامير محمد بن عبدالقادر الجزائري: تحفه الزائر ص (١٣٤-١٢٤).

الجزائري"، حيث بايعه العلماء بالزعامة في٢٧ تشرين الثاني عام (١٨٣٢)"[١].

وقد تجلت عبقرية الامير بقيادة الشعب، من اجل حرب طويلة غايتها استقلال الجزائر، والتنظيم العسكري، والتعليم وتثقيف الشعب بالدين واللغة العربية التي حاولت فرنسا طمسها .كما ان الامير لم ينفرد في حكم البلاد بل انشأ مجلساً للشورى ينتخب من قبل الشعب ليعاونه في الحكم، وبهذا عمل على استكمال كل مظاهر الدولة.

وقد اضطرت فرنسا أن تعترف بسلطة "الامير"[٢] على قسم كبير من الجزائر بمعاهدة حررت بين الفريقين في عام(١٨٣٤م) ثم عقدت معاهدة ثانية في عام (١٨٣٨م) اعترفت للأمير بسيطرته على جميع الجزائر ماعدا مدن "الجزائر ووهران وبليدة والقليعة "وبذلك اعترفت فرنسا بحكومة الامير" عبد القادر."

الا ان فرنسا لم تلتزم بنصوص هذه المعاهدة ايضاً ، بل عمدت الى خرقها . فكان ان استمر الصراع ما بين عامي(١٨٣٩– ١٨٤٧)م ، فكانت فترة هذا الصراع فترة مشرقة في تاريخ الصراع بين شعب اتصف بالشجاعة والجراة والاخلاص وصدق الكفاح والتضحية والبذل، وبين دولة استعمارية، تريد ابتلاع الارض وما عليها تحكمها طغمة عسكرية، تعتمد على سياسة العنف والقسوة، هدفها اخضاع الشعب باي ثمن . فاستقدمت فرنسا قائداً سفاحاً يدعى"بيجو" مع جيش جرار يقوده مغامرون سفاحون فاحرقوا المحاصيل، واعتدوا على الحرمات وأسروا النساء والاطفال وبثوا الفتن بين ابناء الشعب الجزائري. وتعقب الجيش الفرنسي الامير من مدينة الى اخرى ، حيث استعمل الامير اسلوب العاصمة المتنقلة، يسكن فيها مائتي الف مقاتل عامل مزارع في آن واحد.

الا ان القوة الاستعمارية، كانت اكبر من قدرة الشعب من حيث العدد والعدة، بالاضافة الى ان الدولة العثمانية لم تستطع مد يد المساعدة الى الشعب الثائر بقيادة "اميره العبقري"، فاضطر أخيراً للاستسلام في عام(١٨٤٧م) ونفي الى فرنسا ومنها الى استنبول ثم الى دمشق حيث توفي في عام(١٨٨٣م).

---

(١) محمد بن عبد القادر الجزائري: تحفة الزائر ص ١٥٩.

(٢) المصدر نفسه ص ١٨٥.

ان المقاومة الجزائرية لم تقف عند هذا الحد بل بقيت تتجدد واهم تلك الثورات:[1].

١- ثورة اولاد سيدي الشيخ (١٨٤٨-١٨٥٠م) وثورة الاوراس وشمال قسنطينة.

٢- ثورة القبائل عام (١٨٥١م) .

٣- ثورة واحداث الجنوب عام (١٨٥٢م).

٤- ثورة جبال البابور عام (١٨٥٦م) .

٥- ثورة لالا فاطمة في جبال القبائل عام (١٨٥٧م).

٦- ثورة أوراس عام (١٨٥٨م) .

٧- ثورة الشعبانية عام (١٨٦١م) .

٨- ثورة اولاد سيدي الشيخ حتى في وهران وقسنطينة عام (١٨٦٤) .

٩- ثورة محمد المقراني وقد كانت ثورة كبرى اخرى، وهي تشابه ثورة الامير "عبد القادرالجزائري" وقادها "محمد المقراني" عام(١٨٧١م) وهي ثورة شعبية واسعة النطاق ، هدفها الاستقلال التام لاسيما بعد هزيمة فرنسا عام(١٨٧٠م) امام المانيا لكن فرنسا استطاعت القضاء على" محمد ا لمقراني "عام(١٨٧٢). وكانت هذه آخرالثورات قبل ثورة التحريرالأخيرة والتي قادت الجزائر حتى التحرير مابين(١٩٥٤-١٩٦٢م).

سياسة فرنسا الاستعمارية في الجزائر:

كانت سياسة فرنسا في الجزائر تتلخص في: اعتبار الجزائر امتداداً لفرنسا عبر البحر المتوسط، حيث ادعوا ان جبال فرنسا تغور في البحر لتظهر مرة اخرى في جبال الجزائر، فهي جزء مكمل لها، لذلك شجعوا تدفق الفرنسيين والاوروبيين وبشتى المغريات، من اجل الهجرة الجماعية والفردية نحو الجزائر، فكان استعمار احلالي وليس احتلالي فحسب، هدفه احلال الشعب الفرنسي محل الشعب العربي المسلم. حتى ان عدد المهاجرين كان

---

(١) د. زاهية قدورة: تاريخ العرب الحديث ص (٥٠٥)

عام(١٨٣١م) ثلاثة الاف نسمة[1] على الرغم من الصعوبات في بداية الاحتلال.ثم اخذوا يتجهون نحو الجزائر بشكل جماعي حيث نقل العمال الجمهوريين عام(١٨٤٨م)، حتى بلغ عدد الاوروبيين فيها (٥٣٠) ألف نسمة عام(١٨٩١م) وفي عام(١٩١١م) (٧٥٠)الف نسمة بلغ عدد المهاجرين مليون مهاجر عام(١٩٥٤) [2].

وقد سيطر هؤلاء المليون على(٦٥٪) من الاراضي الخصبة بينما كانت نسبتهم (١٠٪) من السكان، مما اضطر الجزائريين الى الرحيل طلباً للعمل في فرنسا ليعملوا في احط الاعمال باجور متدنية.

وقد كانت فرنسا تطلق على الفرنسيين المستوطنين اسم "الجزائريين"، وعلى اهل البلاد اسم "المسلمين"، لكنها عدلت عن ذلك فيما بعد فأسمتهم باسم" الفرنسيين" على اعتبار ان الجزائر جزءٌ من فرنسا.

وكان من سياسة فرنسا ايضاً ، تقسيم الجزائر الى وحدات سياسية، واحتكر الفرنسيون مصادر الدخل فسيطروا على شتى المصادر الاقتصادية من زراعة وصناعة وتجارة وثروات معدنية، فكان دخل الفرنسي عشرة أضعاف المواطن العربي الجزائري ليقضوا على كيانها كدولة، وليمزقوا كيانها الاجتماعي، على الرغم من وحدة الشعب العربي في الجزائر، ثم فتح الباب امام الجزائريين للتجنس بالجنسية الفرنسية لمحو جنسيتهم الاصلية، وقد اعطت فرنسا هذا الحق لليهود الذين شجعتهم على الهجرة الى الجزائر.

وكان من سياسة فرنسا العمل على اقامة تفاوت ثقافي عميق بين فئتي المستوطنين والجزائريين بان كان التعليم مجاني ومتاح للمستوطنين الفرنسيين وممنوع على المواطنين الجزائريين، والعمل على اضعاف الثقافة العربية الاسلامية، وفرضت اللغة الفرنسية كلغة وحيدة في الجزائر. وقد تجلت سياستها الاستعمارية،باقامة تفاوت عظيم بين المستوطنين والسكان من الناحية الاقتصادية، وذلك بتمليكهم الاراضي الخصبة، مع محاربة كل انتاج عربي.

ومن **الناحية الادارية:** سلمت ادارة المجالس والقضاء للمستوطنين، حتى ان

---

(١) محمد عبد الغني سعدوي: الوطن العربي ص ٤٩٤.

(٢) د. زاهية قدورة تاريخ العرب الحديث ص ٥٠٨.

التفاوت كان واضحاً بين قانونين للضرائب احدهما قانون مجحف بحق العرب وأخر حديث للفرنسيين.

ومن سياستها الاستعمارية ايضاً وضع تشريعات وقوانين تطبق على اهل البلاد ولاتطبق على المستوطنين.وقد جند الجزائريون ليحاربوا من اجل فرنسا بعيداً عن بلادهم.

وهكذا كان الشعب الجزائري مجموعة مواطنين لاحقوق لهم في بلادهم، بينما اصبح المستوطنين هم اصحاب كل الحقوق.

الاستعمار الفرنسي في تونس

سيطرت الدولة العثمانية على القطر العربي التونسي في عام (١٥٧٣م) بقيادة " سنان باشا العثماني"، وكان الحاكم العثماني يدعى " الباي"، وهي تعني السيد باللغة التركية وكانت سلطتهم وراثية وهي تشبه سلطة الوالي العثماني.

الا ان البايات كانوا يحكمون تونس حكماً مستقلاً ولكنهم تابعين للدولة العثمانية من الناحية الروحية، وكان احد البايات وهو" احمد باشا " (١٨٣٩-١٨٥٥)، يرغب في اصلاح البلاد، ومن بين الاصلاحات انشاء مدرسة حربية، دعا ضباطاً فرنسيين ليعملوا اساتذة بها، وانشاء مصنعاً حربياً ، وكذلك قام الباي بتشجيع العلم، وقد زار فرنسا فاعجب بما رآه بها وبحضارتها المادية، وحاول بناء قصر يشابه قصر "فرساي"، وقد ادى هذا الترف والبذخ الى وقوع تونس في ازمة مالية، ساعد على تفاقمها ، المغامر والمتامر مع الاجانب من معاوني الباي.ثم تولى بعد احمد" أخوه محمد الذي سار على منوال اخيه في البذخ .

وكان ما سبق مقدمة لتدخل فرنسا وفرض سلطتها على تونس، وذلك عن طريق ايقاع البلاد تحت طائلة الديون، وقد منح الأجانب وجالياتهم في تونس حقاً مطلقاً في الاتجار وامتلاك العقار والأراضي، ومساواتهم مع أبناء البلاد، مما أدى الى احكام التدخل الاجنبي.

تولى الباي"محمد الصادق" بعد اخيه (١٨٥٩-١٨٨٢م) الذي حاول اتمام الاصلاح الا ان فرنسا كانت تراقب الامور عن كثب وتحارب كل خطوة اصلاحية، وبالفعل حل المجلس

الاستشاري الوحيد عام (١٨٦٤م) [1] .

وعلى الرغم من ذلك فقد تابع محمد الصادق سياسة الاصلاح عن طريق الوزير" خير الدين التونسي" الذي حاول اخراج البلاد بثوب متقدم حديث على منوال الدول المتقدمة ، حيث استطاع نقل البلاد من الفوضى والظلم الى حالة الامن والرخاء والضبط والنظام، والرقي في كل مرافق الحياة محاولاً حفظ البلاد من الناحية السياسية داخلياً والمحافظة على استقلالها التام من كل تدخل اجنبي.

الا ان الاطماع الاجنبية كانت تقاوم لكل حالة اصلاح في المغرب العربي كسبيل الى السيطرة عليه، فكانت ان حيكت المؤامرات، ولفقت التهم ضد "خير الدين" فعزل عام(١٨٧٧) عن الوزارة ، ففتحت السبل امام الاطماع الاجنبية على مصراعيها حيث كانت كل من ايطاليا وفرنسا تتنافسان للاستيلاء على تونس. وكانت ايطاليا ترى انها احق بالسيطرة عليها من فرنسا، وذلك لان المهاجرين الايطاليين أكثر في تونس، الا ان ايطاليا كانت دون قوة فرنسا لانها حديثة عهد بالوحدة حيث لم تصبح دولة موحدة الا في سنة (١٨٧٠م).

وقد وافق مؤتمر برلين عام(١٨٧٨م)على ان تطلق يد فرنسا في تونس بمواجهة بريطانيا التي اطلقت يدها في مصر، وقد ساعد على ذلك سيطرة فرنسا على الجزائر منذ عام(١٨٣٠م) والحدود المشركة بين تونس والجزائر .

وكانت فرنسا تريد تدعيم سيطرتها عليها لتأكيد سيطرتها على الجزائر وحماية حدودها.

استخدمت فرنسا مبرراً منفصلاً في سبيل مهاجمة تونس، وهو ان قبيلة الخمير هاجمت المستوطنين في الجزائر لسرقة ابقارهم وهو ادعاء غير صحيح لان فرنسا لم تؤدب تلك القبيلة كما ادعت بل جردت جيشاً ضخماً مخترقاً الحدود التونسية ليتابع سيره الى داخل القطر كما ارسلت اسطولاً ليحتل ميناء "بنزرت"، واتجهت قواتهم نحو العاصمة، لتفرض صلحاً على "الباي "١٢ أيار (١٨٨١م) وقع عليه وسمي بمعاهدة" باردو" او معاهدة صداقة وحسن جوار بين تونس وفرنسا، الا ان فرنسا اخذت تشدد من قبضتها على البلاد

---

(١) احمد امين، زعماء الاصلاح ص ١٥٧.

باحتلالها المواقع المهمة في تونس .

ثم تبع ذلك معاهدة المرسى الكبير وهي احدى ضواحي مدينة تونس،حيث فرضت حمايتها في تلك المعاهده، واصبحت فرنسا تدير البلاد بشكل مباشر .

وكان نص معاهدة المرسى الكبير مكملاً لنص معاهدة باردو، وهو خطوة للسيطرة الواضحة على الرغم من ادعاء فرنسا بان الاحتلال الفرنسي لتونس ماهو الا اجراء مؤقت يمكن انهاؤه بعد ان تصبح تونس قادرة على حفظ النظام.

وقد بقيت السيطرة الفرنسية على تونس بشكل مباشر مع الابقاء على اسم الباي حتى عام(١٩٥٦)حين نالت تونس استقلالها .

السياسة الفرنسية الاستعمارية في تونس

تمثلت السياسة الاستعمارية الفرنسية في تونس بما يأتي:

١- السيطرة السياسية المباشرة دون الغاء منصب الباي كما فعلت في الجزائر.

٢- تعين مقيم عام فرنسي بمرسوم صادر عن رئيس الجمهورية الفرنسية، وهو حاكم عام للبلاد وسكرتير عام للحكومة التونسية وهو يشبه رئيس الوزراء.

٣- اقامة مجلس استشاري للرقابة المالية يمثل اصحاب المصالح من الفرنسيين مهمته النظر في الموازنة والموافقة عليها .

٤- وضع نظم ادارية تخدم مصلحة الفرنسيين، وتسهيلات لمهمة رجال الاحتلال.

٥- احتكار الادارة العامة والمناصب الكبرى بتعيين رجال عسكريين فرنسيين مسؤولين عنها .

٦- وضع رقابة على دخل البلاد بحجة تأمين مصالح اصحاب الديون الاجانب على التونسيين، مما سهل سيطرة الفرنسيين على اراضي تونس لاسيما الخصبة منها .

٧- ادخال التعليم الفرنسي في مدارس خاصة لابناء طبقة معينة من اجل تخريج فئة معجبة بالثقافة الفرنسية لتكون عوناً لفرنسا في السيطرة على الشعب التونسي، كما انشأت مدارس لابناء الفرنسيين، منعت فيها الثقافة العربية لادخال بعض أبناء الطبقة الخاصة من العرب الذين تخرجوا منها جاهلين لغتهم وتراثهم ومنعت المدارس

العربية، وكان بصيص الامل يتمثل بجامع الزيتونة، الذي اقتصر التعليم فيه على العلوم الدينية واللغوية ونشر الثقافة الاسلامية، لذلك كان جامع الزيتونة الحصن الحصين للثقافة العربية الاسلامية لكل المغرب العربي، والذي لم يستطع الفرنسيون السيطرة عليه.

وقد قاوم الشعب التونسي الاحتلال منذ البداية وكانت اولى الثورات بقيادة "علي بن خليفة "في عام (١٨٨٢م) الا ان الفرنسيين قضوا عليها وقد تركزت المقاومة فيما بعد بظهور حركات سياسية كان منها حركة "تونس الفتاة التي تشابه حركة تركيا الفتاة.

الا ان هذه الحركة كانت مرفوضة من الشعب التونسي، بسبب ايمانها باقتفاء آثار الثقافة الفرنسية لاعجاب اعضائها بالمدنية الفرنسية، وقدظهر بالمقابل رجال الحركة الوطنية خريجو جامع الزيتونة وجامعته، وكان هؤلاء من اشد المواطنين عداء للفرنسيين، وحملوا شعلة التحرر في المغرب مع محافظتهم على التراث الاسلامي، واللغة العربية، لذلك كان لهؤلاء ارتباط بالحركات الاسلامية في المشرق الاسلامي،فوقفوا الى جانب تركيا حين غزو ايطاليا لليبيا موقفاً حازماً فكان ان قامت فرنسا بنفيهم عام(١٩١٢م).

وفي خلال الحرب العالمية الاولى وقف التونسيون الى جانب فرنسا آملين ان ينالوا الاستقلال وحق تقرير المصير، وبعد الحرب طالب التونسيون بحقهم في نيل الاستقلال، فنشأ حزب الاستقلال بزعامة "عبد العزيز الثعالبي"، وكان رجالاته من خريجي الزيتونة، وقد استطاع هذا الحزب نيل ولاء غالبية الشعب التونسي بسبب تجاوبه مع مطالب الشعب لكن الحكومة الفرنسية وقفت ضد مطالب الحزب بتحسين اوضاع التونسيين، بهدف الوصول الى الاستقلال في النهاية. ثم ظهرت حركة "محمد المزالي" التي تنادي بفكرة العمل السياسي الجماعي، ومنها حركة" طاهر الحداد " الذي نادى بالاصلاح الثوري بقيام صراع بين المجتمع القومي والرأسمالي الاستعماري.

ثم ظهرت حركات عمالية نادت بالاصلاحات الاجتماعية والاقتصادية وتدعيمها لتكون ركيزة النضال السياسي والمقاومة الوطنية. وقد استطاعت هذه الحركة تأسيس نقابات لكثير من الاعمال والمهن.

واخيراً قام حزب" الدستور الجديد الذي مثل حركة شعبية شاملة، وكان اعضاؤه من ابناء الطبقة الوسطى والكادحين، وقد كانت اهداف الحزب تتمثل بالاستقلال والتحرير ، وقد تبنى اسلوب القوة لنيل الاهداف.

وفي نهاية الحرب العالمية الثانية طالب التونسيون بحق تقرير المصير بناء على وعد من حكومة فرنسا الحرة، الا ان الحكومة الفرنسية قامت في عام(١٩٤٦م)باعتقال الرجال الوطنيين من حزب الاستقلال والنقابات العمالية خلال انعقاد مؤتمر وطني وكان لهذا العمل اثر ايجابي حيث قام الشعب بثورة وهياج شعبي، ثم عرض الشعب التونسي قضيته على هيئة الامم عام(١٩٥١- ١٩٥٢م)،واخيراً اضطرت فرنسا تحت الضغط العالمي وكفاح الشعب التونسي الى الاعتراف بالاستقلال التام في ٢٠ اذار عام (١٩٥٦م) مع بقاء قواعد فرنسية في تونس، وقد تخلصت منها تونس في عام (١٩٦٣م).

الاستعمار الفرنسي والاسباني في المغرب «مراكش»

كان يحكم المغرب عائلة من الأشراف منذ بداية القرن السابع عشر، وكان من بين سلاطينها مولاى " عبد العزيز" عام(١٨٩٤- ١٩٠٨م)[1]. تجلى في عهد هذا السلطان ضعف الادارة، وانصرافه الى اللهو والترف، ففرض الضرائب الباهظة ولجأ الى الاستدانة من الدول الاجنبية، وكانت فرنسا اكثر الدول تشجيعاً للسلطان على الاقتراض والتورط في الديون.

وكانت هذه الديون هي النشاط الظاهري لفرنسا من اجل مد نفوذها الى المغرب، على الرغم من ان فرنسا كانت احدى الدول الموقعة على معاهدة "مدريد" (١٨٨٠)، والتي تنص على المحافظة على استقلال المغرب الا ان الموقف الدولي كان ضد فرنسا، فاخذت هذه تعمل على تذليل هذه الصعوبات فعقدت عدة معاهدات مع الدول الاخرى.

١- عقدت معاهدة سرية مع ايطاليا في عام(١٩٠١) تطلق يدها في ليبيا.

٢- عقدت اتفاقاً مع اسبانيا في عام (١٩٠٤) تنص بنوده السرية على اقتسام المغرب.

---

(١) د. زاهية قدورة تاريخ العرب الديث ص ٥٣٩.

٣- عقدت اتفاقية مع بريطانيا، سميت "الاتفاق الودي" في عام (١٩٠٤م)، اطلقت يد بريطانيا في مصر، مقابل اطلاق يد فرنسا للعمل في المغرب.

اهملت فرنسا الدولة الالمانية المتطلعة الى السيطرة على اجزاء من افريقيا،مما ادى الى قيام امبراطور المانيا بزيارة سلطان المغرب في عام (١٩٠٥م) ، معلناً في طنجة وجوب المحافظة على الاستقلال المغربي.

وقد اقنعت المانيا امريكا بالاعلان عن وجوب عقد مؤتمر دولي يبحث امور المغرب، فانعقد المؤتمر في مدينة الجزيرة على الشاطئ الاسباني، وقد تمخض المؤتمر عن قرارات مفادها، وجوب المحافظة على استقلال المغرب، وسيادة سلطانه، مع انشاء قوة بوليس فرنسية مغربية[1].

احتفظت فرنسا بنواياها نحو المغرب، وذلك بتنفيذ ماااتفقت عليها سراً مع بريطانيا وايطاليا واسبانيا، وقد ظهر ذلك من خلال استغلالها للظروف، منها مقتل طبيب فرنسي في جنوب مراكش، فاحتلت مدينة "وجدة" في شرقها، ومن ثم تعللت باسباب اخرى لمد نفوذها الى المغرب أثر اعتداء بعض المواطنين في الدار البيضاء على عمال اوروبيين، فاحتلت الدار البيضاء ثم الرباط، ثم زادت من سيطرتها على البلاد باسم ضمان ديونها، وكانت قد اغرقت البلاد بالديون، فاقدمت على احتلال العاصمة "فاس" لكن المانيا اظهرت اعتراضها، فسوى الامر عام (١٩١١م) باعطاء المانيا جزءاً من المستعمرات الفرنسية في افريقيا مقابل سكوتها عن احتلال فرنسا للمغرب، فاستغلت فرنسا حدوث حركة ضد السلطان فلجأ هذا الى فرنسا يطلب حمايتها فكانت معاهدة الحماية في عام (١٩١٢م)، وهي بداية السيطرة التامة لفرنسا على المغرب، وذلك بعد ان اتفقت مع اسبانيا بمنحها (١/٢١) من ارض المغرب، وان تبقى "طنجة" بمينائها تحت ادارة دولية.

سياسة فرنسا الاستعمارية في المغرب

كانت سياسة فرنسا في المغرب تعتمد على ابقاء الحكم المحلي شكلياً ،لكن السلطة

---

(١) روم لاندو، تاريخ المغرب في القرن العشرين ص (٥٢٠).

الحقيقية كانت في يد الادارة الفرنسية، وقد شجع الفرنسيون هجرة الاوروبيين الى المغرب، وبنوا لهم مدناً مستقلة بجوار المدن القديمة. ثم عملت الحكومة الاستعمارية على التفرقة بين العرب والبربر باظهار الشخصية البربرية بالاشادة بتقاليدهم، وقد بلغ ذلك الذروة عندما اصدرت مرسوم" الظهير البربري" الذي نشر عام(١٩٣٠) وهو قانون يوصل تقاليد البربر القديمة وعاداتها ويحاول ان يحلها محل الشريعة الاسلامية، وهي سياسة خبيثة ارادت بها فرنسا ان تبث الفرقة بين العرب والبربر[1] وذلك من اجل فصل البربر عن دينهم ليسهل ضمهم الى فرنسا.

كما سلكت فرنسا سياسة استعمارية تهدف الى نقل المواطنين الفرنسيين الى المغرب، حيث اتاحت لهم سهولة السيطرة على الاراضي الزراعية والموارد المعدنية والمؤسسات الاقتصادية والمشروعات العمرانية.

كما عينت الفرنسيين فقط في الوظائف والمناصب الكبيرة ولم تترك للمغاربة سوى المراكز الصغيرة.

بدأت المقاومة المغربية ضد النفوذ الفرنسي، وكان اعظم ابطال المقاومة الامير "عبد الكريم الخطابي" الذي اشعل نار المقاومة منذ عام(١٩٢١م) ضد فرنسا واسبانيا. إذ بدأ ثورة في الريف المراكشي عام (١٩٢١م) ضد النفوذ الاسباني، وقد نجح في التغلب على جميع القادة الاسبان الذين جندوا ضده.[2]

واستطاع ان يجلي الاسبان عن منطقة الريف (١٩٢٤م)وتقدم الى المنطقة الفرنسية من المغرب، الا ان فرنسا استعملت اسلوب تقسيم القبائل المتحالفة معه، بالرشوة والانقسام العرقي، حيث استطاعت الانقضاض على جيشه بعد انسحاب بعض القبائل منه، فاستسلم لها عام(١٩٢٦)، ونفي الى احدى الجزر النائية، ثم التجأ الى مصر عام (١٩٤٧م)، وتابع من هناك دعم نشاط حركات التحرر المغربي، وقد شهد استقلالها حيث توفي عام (١٩٦٣).

كان عبد الكريم مثالاً يحتذى به من قبل الحركة المغربية الهادفة الى الاستقلال،

(١) وليم زراعتن، الحكومة والسياسة في شمال افريقيا ص (١٩).

(٢) روم لاندو، مصدر سابق ص(١٤٩).

فظهرت فئة مكافحة هي " العصبة المغربية" في الرباط ثم امتدت الى فاس، وتزعمها "علال الفاسي" في جامعة القرويين، الذي كان يشبه جامع الزيتونة، من حيث تخريج الوطنيين المناوئين للاستعمار.

ثم تأسس حزب الاستقلال في عام (١٩٤٣م) الذي تزعم الحركة القومية في المغرب، وعلى الرغم من التعسف الفرنسي ضد رجالات الثورة فقد مضت الحركة الاستقلالية في المغرب ، حزب الاستقلال حزب الوفد في مصر، وحزب الدستور في تونس، الذين حملوا لواء العمل من اجل الاستقلال.

وكان حزب الاستقلال قد حمل لواء الكفاح والعمل من اجل تثبيت الثقافة العربية الاسلامية في المغرب، فقام بفتح المدارس العربية، والاخذ بالطريقة الديموقراطية في الحكم، كما ان رجال الحزب عملوا من داخل المغرب بنشاط واخلاص،ومن القاهرة عملوا دعاية واسعة لنيل التأييد العالمي لقضية الاستقلال المغربي.

كما ظهر في الريف المراكشي احزاب اخرى تعمل من اجل الاستقلال والوحدة مع بقية المغرب. ثم تكونت جبهة مغربية موحدة في عام(١٩٥١م)، وقد تزعم الجبهة سلطان المغرب" محمد بن يوسف « محمد االخامس» الذي ايد الاستقلال.

وقد حاولت فرنسا دعم سيطرتها بسن قوانين جديدة لاحكام قبضتها على المغرب، واستبدال معاهدة الحماية باقامة اتحاد فرنسي مغربي، ولما رفض السلطان محاولة فرنسا هذه خلع من الحكم، بالاستعانة برئيس الطرق الصوفية والجلاوي الزعيم البربري، الذين اوعزت لهما بالمطالبة بعزل السلطان محمد الخامس، مبررة سبب عزله في عام(١٩٥٣) بمطالبة المقيمين الفرنسيين الذين اعتبروه واجهة الحركة الوطنية.

كان من أهداف فرنسا تعيين سلطان جديد " محمد بن عرفة" ليكون اداة طيعة بيدها، مما ادى الى قيام ثورة شعبية عارمة قامت باثارة الاضطرابات، ومقاطعة البضائع الفرنسية، وتخريب املاك الفرنسيين. يضاف الى ذلك الضغط العربي والعالمي على فرنسا، فاضطرت الى تغيير المقيم الفرنسي، وعزل محمد عرفة واعادة محمد الخامس الى عرشه عام(١٩٥٥م).

ثم تبع ذلك اعلان فرنسا عام (١٩٥٦م) انهاء نظام الحماية بعد ان دام (٤٤) عاماً

(١٩١٢- ١٩٥٦م). ثم انهت اسبانيا حمايتها على الريف في نفس العام، وتم اعادة طنجة الى الوطن الام وبذلك نالت المغرب استقلالها التام بعد كفاح مرير قاده الشعب العربي في المغرب.

الحملة الفرنسية على مصر(١٧٩٨-١٨٠١)

الحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٨-١٨٠١)

دخلت مصر تحت حكم العثمانيين بعد معركة "الريدانية" عام (١٥١٧م)، وقد استفاد العثمانيون من علومها وحضارتها حيث نقل السلطان سليم مجموعة المفكرين والعلماء الى الاستانة، وبقيت احدى الولايات العثمانية حتى قيام الحملة الفرنسية عام (١٧٩٨م)، والتي سبقها عصر جمود وتخلف في الحضارة العربية .

وبالمقابل تقدمت اوروبا بنهضتها وتطورها العلمي، فاصبح الوطن العربي نهباً للمغامرين والمستعمرين الاوروبيين، وكان التنافس على هذه السيطرة شديداً بين مختلف الدول الاوروبية، من اجل الاستيلاء على الاسواق التجارية، والاستفادة من موقع الوطن العربي الاستراتيجي.

تمثل حملة نابليون احدى توجهات الدول الاوروبية لمد النفوذ الاستعماري، ومن الجدير بالذكر ان فرنسا كانت قد حاولت احتلال مصر في مرة سابقة من خلال الحروب الصليبية في الحملة الصليبية السابعة بقيادة ملكها" لويس التاسع"، الا انه فشل في الحملة واندحر عن مصر، وكان ذلك في عام (١٢٥٠م).

وكانت اهداف حملة نابليون على مصر تتمثل بما يلي:.

١- محاولة فرنسا جعل البحر المتوسط بحيرة فرنسية بالسيطرة على شواطئه.

٢- ضرب الاسطول البريطاني في شرق وغرب البحر المتوسط والتي كانت تمثل العدو اللدود لفرنسا في حينه.

٣- رغبة نابليون في اقامة دولة شرقية، تحت النفوذ الفرنسي تصبح قاعدة قوية لغزو الهند " المستعمرة البريطانية"

٤- اختيار مصر بالذات لموقعها الاستراتيجي في المشرق العربي لاسيما انها صلة الوصل بين البحر المتوسط والبحر الاحمر.

٥- طلبت الحكومة من نابليون ضرب بريطانيافوجد هذا ان ضربها من خلال مصر

باتجاه الهند اسهل من مهاجمتها بشكل مباشر[1].

٦- هناك اسباب خاصة وهي رغبة الحكومة الفرنسية ابعاد نابليون عن فرنسا، ورغبة نابليون في نيل الشهرة اللازمة من اجل السيطرة على الحكم فيما بعد.

بدأت الحملة الفرنسية من موانئ فرنسا الجنوبية في ايار (١٧٩٧م) وكان عدد جنودها(٤٠)ألف جندي.

وصل نابليون شواطئ الاسكندرية في ٣ تموز(١٧٩٨م) فاحتل المدينة، ثم اسرع براً الى القاهرة فسيطرعليها اثر معركة فاصلة قرب الاهرام، حيث احتل المدينة وهرب جيش المماليك الى الصعيد، ومن ثم وزع نابليون منشوراً موجهاً الى الشعب المصري ضمنه ادعاءاً وتبريراً لمجيئه الى مصر هو تخليص الناس من ظلم المماليك الذين كانوا يسيطرون على املاك مصر، وقد ادعى نابليون ان الفرنسيين مسلمين، وأنهم الى جانب الدولة العثمانية، وقد حاول استرضاء الشعب المصري بالوعود الاصلاحية .

الا ان الشعب المصري لم ينخدع بالكلام المعسول، وأدرك ان نابليون كان يكذب عليه وقد بدأ ذلك واضحاً يوم دخول الفرنسيين الجامع الازهر حيث نهبوه، وداسوا المصاحف وقتلوا العلماء والمشايخ المعارضين للاحتلال، وان نابليون فرض الضرائب، وصادر الاموال والدور فكانت ثورة الازهر التي بدأت من "حي بولاق" في ٢آذار (١٨٠٠)م[2] .

واستخدام الفرنسيون القوة الوحشية في اخمادها فاستخدموا المدفعية في قصف الازهر والاحياء الشعبية فدمروا وقتلوا الكثير دون تمييز بين شيخ وطفل وامرأة .

وقد ساءت معاملة نابليون لمصر بعد تحطيم الانجليز بقيادة "نلسون" الاسطول الفرنسي في خليج « ابوقير»، وانقطاع الاتصالات مع فرنسا، مما شجع الشعب المصري على الثورة، فكان رد فعل نابليون هو استعمال المدفعية والاسلحة الحديثة ضد المدن، وبذلك استطاع نابليون القضاء على اولى الثورات الشعبية ضده في مصر.

ولما علم نابليون باتصال العثمانين مع الانجليز لاستعادة مصر، قام بحملته على الشام،

---

(١) عبد الكريم الجبري: عجائب الاثار في التراجم والاخبار جـ٣ ص (٤-٥).

(٢) امين سعيد: تاريخ مصر السياسي، ص (٢٥).

فاحرز النصر، واحتل غزة ويافا، وقد وصل الى اسوار عكا التي صمدت امام الحصار الفرنسي، فلم يستطع السيطرة عليها لبسالة اهلها وتفشى الامراض بين جيشه وقد قام نابليون خلال احتلاله يافا بمجزرة رهيبة حيث قتل ثلاثة الاف جندي بعد أن اعطاهم الامان فاستسلموا، وقتلهم دون مبرر.

سمع نابليون خلال حصار عكا بقيام ثورة ضده في مصر فرجع ليقضي عليها، وعند رجوعه سمع بتأزم الموقف في فرنسا، فاضطر ان يعود الى فرنسا سراً ،تاركاً الجنرال "كليبر" مساعده لمفاوضة الدولة العثمانية من اجل الجلاء عن مصر. فكانت اتفاقية سنة (١٨٠٠م)بين الفرنسيين وتركيا على ان يغادر الفرنسيون مصر، وان يتركوها الى تركيا، الا ان بريطانيا رفضت السماح للجنود الفرنسيين بمغادرة مصر الا اسرى حرب، فرفض الفرنسيون، وعادوا لمهاجمة الجيش التركي وطرده من مصر، وفي نفس الوقت استطاع شاب سوري هو "**سليمان الحلبي**" قتل القائد **كليبر** ، فخلفه القائد "**مينو**" ، في تلك الفترة تدخل الجيش الانجليزي ليحتل الاسكندرية عام (١٨٠١م)، ثم القاهرة، فاضطر القائدالفرنسي للاستسلام، وبذلك هزم الجيش الغازي رغم انه نهب وسلب وقتل واقترف جرائم مختلفة ضد الشعب .

غادر الجيش الفرنسي مصر سنة(١٨٠١م)، فحصل تسابق على حكم مصر بين المماليك والعثمانيين، كما تلكأ الانجليز باخراج جيشهم، الا انهم خرجوا امام الحاح العثمانين والفرنسيين حسبما اتفقوا معهم.الا ان الانجليز حاولوا مرة اخرى السيطرة على مصر عام(١٨٠٧م) بقيادة "فريزر"، فاحتلوا الاسكندرية، واتجهوا نحو القاهرة، الا ان بسالة المقاومة الشعبية في الدفاع عن الوطن اوقفت الانجليز في معركة رشيد ليعودوا الى الاسكندرية ثم لينسحبوا منها.

وعادت مصر ولاية عثمانية، ليبرز شخص جديد على الحلبة وهو" محمد علي باشا"الذي اختاره الشعب المصري والياً والذي حاول ان تكون له امبراطورية تمتد عبر الوطن العربي إلا ان المؤامرات البريطانية وقفت حائلاً دون ذلك لانها كانت تتطلع الى اليوم الذي تستطيع فيه السيطرة على مصر.

الاستعمار البريطاني في مصر

اصبحت مصر في القرن التاسع عشر دولة قوية شغلت الدبلوماسية بسياستها وغزواتها، وابدى الشعب العربي في مصر قدرة عجيبة على الاستجابة للوعي والنمو والتطور والنهوض، الا ان مؤامرات بريطانيا حصرت الحركة العربية في مصر ، لانها ترى أن مصر دولة عربية، ويمكنها أذا قويت أن تقف في وجه اطماعها ومن هنا اعتبرت أن نهوضها في عهد محمد علي معناه نهوض الشرق العربي وتحصينه ضد اطماع الغرب[1].

اصبح الحكم وراثياً في عائلة" محمد علي"، الا ان هؤلاء لم يكونوا بقدرة "محمد علي"، فاستعانوا بالغرب من اجل النهوض، واستفادوا من فرنسا وانجلترا، وكان اشهر هؤلاء الخديوي" اسماعيل" الذي نشأ في فرنسا، فاتخذ مستشاريه من الفرنسين من اجل استمرار النهوض، وقد نصحه هؤلاء بالاستمرار بالانفاق، فذهب جزء كبير من واردات مصر على الملذات والرفاهية للخديوي واعوانه.

وكان مشروع قناة السويس في عهده، كانت القناة الاولى من نوعها في العالم طولها (١٧٣) كم ومتوسط عرضها (٦٠)م وعمقها(١٣)م. وهي تربط البحر الاحمر بالبحر المتوسط. وكانت فكرة القناة قديمة منذ عهد الفراعنة، حيث وصل النيل بخليج السويس ثم حفرت اكثر من مرة في عهد اليونان، والوومان، والمسلمين الا انها كانت تطمر بسبب الرمال.

بدأ الحفر بقناة السويس سنة (١٨٥٩م) وانتهى العمل بها سنة(١٨٦٩م)، باشراف المهندس" فرديناندي لسبس" .

وقد حفرت بعرق وجهد الشعب المصري بكامله بالسخرة، حيث مات في ارض القناة (٢٠) ألف عامل. وتكلفت الخزينة المصرية ملايين الجنيهات بالاعمال الهندسية والحفر، والبذخ في احتفالات الافتتاح، فعجزت عن الدفع، فقام الخديوي اسماعيل برهن اسهم مصر في القناة، واشترت انجلترا جميع اسهم مصر فاصبحت القناة غير مصرية على ارض مصر.

---

(١) محمد صبري: الامبراطورية المصرية في الخمسين عاماً الاخيرة، ص (٤٦٩).

زادت ديون مصر نتيجة اسراف الخديوي، واستنزاف الدائنيين والمرابين الفاحش[1] وعجزت الخزينة المصرية عن الدفع ففتح ذلك الباب امام التدخل الاجنبي في الامور السياسية، فعينت بريطانيا وفرنسا وزراء خاضعين لمراقبة مالية مصر، مدعيتين ان ذلك من اجل الحفاظ على حقوق الدائنين. وكانت وزارة المالية بيد بريطانيا، والاشغال العامة بيد فرنسا.

وعلى اثر خلع الخديوي اسماعيل وتعيين" توفيق" محله عام(١٨٧٩م)، ازدادت المشكلات الداخلية، حيث رفض توفيق الاستجابة لمطالب الشعب،لانه وقع تحت النفوذ الاوروبي، وتسلط رجال الحاشية عليه لضعفه، في هذه الفترة ظهر احد الضباط الوطنيين هو "احمد عرابي" ثائراً ضد تسلط وزير الحربية والعميل البريطاني، قائداً لثورة الجيش والفلاحين، مطالباً بجعل مصر للمصريين، وانضم اليه عدد من الضباط، الا ان وزير الحربية حاول ترحيلهم الى محكمة عسكرية، الا ان ضباطاً عرباً استطاعوا تخليصهم. مما اضطر الخديوي الى الاستجابة وعين" محمود سامي البارودي" وزيراً للحربية، الا انه عزل بعد مدة وجيزة ليقوم عرابي بمظاهرة عسكرية، فعين احد الاحرار رئيساً للوزراء ليحلها الخديوي مرة اخرى ، ثم عين البارودي رئيساً للوزراء واحمد عرابي وزيراً للحربية.

الا ان الخديوي توفيق، لجأ الى الأنجليز لانه لم يستجب لطلبات الشعب بناءاً على نصيحة الاجانب، وكانت مذبحة" الاسكندرية" في ١١ تموز عام(١٨٨٢م) التي دبرها الانجليز، بين العرب والاجانب فاستغلت بريطانيا هذه الحادثة، حيث قصفت البوارج البريطانية الاسكندرية بالمدفعية، ولم يستطيع الانجليز تجاوز التحصينات لاحتلال مصر، ففطن احمد عرابي الى نقطة الضعف التي يمكن ان تدخل منها القوات الانجليزية، الا وهي قناة السويس فحاول ردمها، الا ان دي لسبس اكد له ان القناة حيادية، لايمكن دخول الانجليز منها.

ولكن البوارج البحرية البريطانية دخلت عن طريق القناة واتجهت القوات البريطانية الى القاهرة، فوقعت معركة" التل الكبير" حيث انهزمت القوات المصرية ليحتل الانجليز القاهرة وعلى اثر ذلك قبض على الضباط والوزراء حيث ، سجنوا ونفوا الى "سيلان".

---

(١) الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده: تاريخ الاستاذ الامام جـ١ ص (١٥٩-١٦٠).

ادعت بريطانيا منذ اليوم الاول لدخول قواتها مصر بان احتلالها سيكون مؤقتاً، لانقاذ البلاد من الفوضى، واعادة حياة الاستقرار والاطمئنان، وحماية الاقليات والجاليات الاجنبية في مصر، وحماية المصالح الانجليزية السياسية والاقتصادية بسبب ما ، لمصر من موقع استراتيجي عسكري، اقتصادي، والمحافظة على قناة السويس[1].

قامت سياسة بريطانيا الاستعمارية في مصر، على قاعدتين متناقضتين في الظاهر، الاولى : ان الاحتلال مؤقت وسوف تجلو القوات البريطانية في اقرب وقت تتهيأ الفرص لاستقرار الامور في مصر، والقاعدة الثانية: احكام السيطرة على كل الامور في مصر استعملت في القاعدة الاولى سياسة ابقاء مصر على وضعها الدولي السابق، فهي جزء من الامبراطورية العثمانيةحتى عام (١٩١٤) يترأس الخديوي فيها الهيئات والسلطة الرسمية.

اما سياسة القاعدة الثانية الاستعمارية فقد قامت على ما يلي:.

١- الغت بريطانيا المراقبة الثنائية"البريطانية الفرنسية"على شئون مصر المالية، لانها لاتريد ان تبقى فرنسا شريكة لها في السيطرة.

٢- حولت مصر الى قاعدة لتزويد الصناعة البريطانية بالقطن، وسوقاً لتصريف بضائعها المصنعة.

٣- زيادة عدد الموظفين الانجليز الى حد السيطرة شبه الكاملة على الشؤون الادارية، والتخلي عن بقية موظفي القطر من مصريين وغيرهم.

٤- السيطرة الكاملة على كل مقدرات الدولة وحرمان المصرين من كل سلطة

٥- اجلاء المصريين عن السودان من موظفين وسكان واحلال الانجليز محلهم حيث أجلى الجيش المصري عام(١٨٨٤م) من السودان بعد الثورة المهدية، وبعد استرجاع السودان (١٨٩١م) بقوات انجليزية مصرية مشتركة فرض الحكم الثنائي اسما والانجليزي بالكامل فعلاً .

استمرت الادعاءات البريطانية بان احتلالها لمصر مؤقت حتى الحرب العالمية الاولى فانتهزت فرصة اشتراك تركيا في الحرب الى جانب المانيا، واعلنت الحماية البريطانية على

---

(١) د. محمد مصطفى صفوف: الاحتلال الانجليزي لمصر وموقف الدول الكبرى ازاء، ص (٢١٥).

مصر وفصلها عن تركيا . ثم عينت سلطاناً عليها بدلاً من الخديوي وهو السلطان "حسن كامل"، ثم السلطان" احمد فؤاد" وكلاهما من اعوان الانجليز . وعندما انتهت الحرب العالمية الاولى شبت ثورة مصرية عارمة عام(١٩١٩)، بسبب منع انجلترا مندوبين عن مصر من الوصول الى مؤتمر الصلح في باريس، مطالبين بالغاء الحماية البريطانية على مصر.فتشكل حزب الوفد بزعامة سعد زغلول وزملائه الوطنيين الذين سعوا لاخراج الانجليز من مصر والسودان، وقد اضطرت بريطانيا في عام (١٩٢٢م)، الى الغاء الحماية والاعتراف باستقلال مصر مع الابقاء على عدة تحفظات لمصلحة بريطانيا، سواء كانت عسكرية او مدنية ولم تتحرر مصر نهائياً الابعد ثورة ٢٣ تموز عام(١٩٥٢م) بقيادة "جمال عبد الناصر " ورفاقه.

احتلال السودان

دخلت السودان في الوحدة مع مصر في عهد محمد علي باشا في عام(١٨٢٢م)، وقد حقق المصريون للسودان امرين اولهما تحديثه، وثانيهما الوحدة الوطنية، الا ان اوضاع مصر السياسية والاقتصادية المتدهورة ،خاصة في عهدالخديوي اسماعيل وتوفيق، انعكست على السودان، حيث اشتدت الضائقة الاقتصادية، وعم الفساد الاداري، وقد زاد في ذلك استعانة الخديوي بعدد من المغامرين الاوروبيين، الذين اندفعوا الى السودان لتحقيق اهداف دولهم الاستعمارية،ومن هؤلاء السير"صموئيل بيكر"، والذي عهد اليه الخديوي اسماعيل سنة (١٨٦٩م) ادارة مديرية خط الاستواء، واستمر بعده الجنرال "غوردون" وكان في الواقع يوطد سياسة بلاده ونفوذها.

وقد ادعت بريطانيا انها تحارب تجارة الرقيق، لكنها كانت تحارب اقتصاد السودان، وقد قال" غوردون" « وقد أقمت مايشبه الحكومة الارهابية في معاملة هذه التجارة»[1]

ونتيجة مفاسد الحكم والتسلط الاقتصادي، والفساد الاجتماعي قامت ثورة "محمد احمد الملقب" بالمهدي ويمكن ان ترجع اسباب تلك الثورة الى الاسباب التالية:

١- العنف الذي رافق الفتح البريطاني.

---

(١) الشاطر بعيلي عبد الجليل: معالم تاريخ سودان وادي النيل، ص (١٦٤).

٢- الضرائب الفادحة التي فرضت وجبيت بالقوة.

٣- محاولة الحكومة منع الرقيق والإتجار به.

٤- محاباة الحكومة ومساندتها لطائفة الختمية.

٥- الاسراف في تعيين الاجانب في المراكز الرئيسة في البلاد الذين نكلوا بالسكان.

٦- التدخل في الشؤون الدينية والحياة اليومية للسكان[1]

استطاع المهدي سحق حملة بريطانية بقيادة " هكس"وكان من اسباب نجاح ثورته هو اعلان الجهاد، فلاقت صدى في نفوس المصريين الموجودين في السودان، وكان لانتصارات المهدي اثرٌ في التفاف الناس حوله، لاعتقادهم بانه المنقذ المنشود.حيث كانت تنشد قيام وحدة وادي النيل، ومن ثم توحيد العالم الاسلامي.

قام المهدي بهزيمة القوة البريطانية والسيطرة على العاصمة وقتل"غوردون" سنة(١٨٨٥م)، توفي المهدي في نفس السنة ليتولى زعامة المهدية، خليفته "عبد الله" الذي استطاع احتلال السودان وهزيمة الحبشة واحتل عاصمتها وهاجم مصر ليصل وادي حلفا الا انه ارتد عنها، وقد هوجمت السودان من الجنوب من قبل الطليان الا ان الاسودانيين هزموهم.

وفي سنة (١٨٨٦م)جهزت حملة بريطانية مصرية، بقيادة "كتشنر"، فاحتل ام درمان الميناء الرئيسي للسودان، واخضعت السودان لحكم ثنائي مصري - بريطاني الا ان انجلترا كانت صاحبة النفوذ الاقوى . وقد بقيت هذه السيطرة الكاملة حتى عام(١٩٣٦م)ليعود الجيش المصري للسودان، ليشارك الانجليز بحكم السودان.

وبقيت السيطرة البريطانية شبه كاملة على السودان، رغم المفاوضات الطويلة حتى قامت ثورة مصر(١٩٥٢)، فتم الاتفاق مع بريطانيا على اعطاء الشعب السوداني حق تقرير المصير، فقرر مصيره في ١٢ شباط بالاستقلال وقيام دولة السودان الحديثة .

---

(١) المصدر نفسه، ص (١٩٠-١٩١).

الاستعمار البريطاني في سواحل الجزيرة العربية

احتل الانجليز جزيرة" بريم" عام(١٧٩٩) التي تشرف على مضيق باب المندب، وفرضوا الحرب ضد فرنسا التي احتلت مصر، حيث استطاع مندوب بريطانيا ان يعقد اتفاقاً تجارياً مع سلطان لحج عام(١٨٠٢) فتحت عدن بموجبه ابوابها للتجارة الانجليزية، وكان هذا العمل تمهيداً للسيطرة البريطانية على الموانئ اليمنية، وكان هم بريطانيا هو احتلال ميناء عدن ليكون قاعدة للسفن البريطانية ومستودعاً للفحم، كما ركزت على مينائها لأهميته التجارية.

تحينت بريطانيا الفرص، وقد جاءت حادثة مناسبة للتحرش بامام اليمن، حيث قام حاكم لحج التابع للامام في عام(١٨٢٠) بالقبض على القنصل البريطاني وبعض الحرس بسبب حجز وكالة اعمال بريطانية لأحد السكان العرب،فارسلت بريطانيا سفينةحربية وطالبت السلطان بترضية تتضمن عدة امتيازات سياسية، ولما لم يوافق السلطان قامت السفن البريطانية بضرب عدن بالمدفعية وهدم حصونها ومبانيها، مما اضطر السلطان الى عقد معاهدة مع بريطانيا في ١٥كانون الثاني عام(١٨٢١م)، ووافق على جميع مطالب بريطانيا.

وقد نصت هذه المعاهدة على«حماية شركة الهند الشرقية البريطانية والرعايا البريطانيين من الظلم الواقع عليهم ومن اتخاذ الاجراءات الشديدة ضدهم»[1].

ولما قويت سلطة "محمد علي" باشا في الجزيرة خشي الانجليز من نفوذه هناك، فاخذوا يتحينون الفرص لفرض سيطرتهم الكاملة على عدن، فكانت الفرصة السانحة حين جنحت باخرة بريطانية في عام(١٨٣٧)، بالقرب من شاطئ عدن وكانت محملة بشحنة كبيرة فهاجمها سكان عدن، وسلبوا ما امكن من حمولتها، فادعت بريطانيا ان ابن سلطان لحج كان يقود هذا الهجوم ، فطلبت بريطانيا من السلطان التنازل عن عدن مقابل سكوتها عن حادثة السفينة، فوافق السلطان الا ان ابنه رفض هذا الاتفاق، وقاد المقاومة ضد بريطانيا التي ارسلت اسطولها في عام (١٨٣٩م)، فاحتل جنودها الميناء، ورفعوا العلم البريطاني فوق قصر السلطان معلنين احتلالها، وكان الهدف من احتلال عدن هو ما اوضحه القنصل في مصر وهو

---

(١) عبد الحميد البطريق، من تاريخ اليمن الحديث، ص(٥٩).

«ان امتلاك البريطانيين لعدن لم يكن الغرض منه احتكار تجارة البن في اليمن، وجعل الجزيرة العربية سوقاً لبضائعهم ومصنوعاتهم فحسب، بل إنهم يهدفون ايضاً الى السيطرة على مدخل البحر الاحمر حتى يساعدهم ذلك في المستقبل على غزو مصر وضمها الى املاكها»[1].

بريطانيا والكويت

كانت بداية العلاقات التجارية بين بريطانيا والكويت ترجع الى عام(١٧٧٥م)،حيث كانت الكويت جزءاً من سيادة الدولة العثمانية في العراق، وبدأت العلاقات السياسية بمعاهدة عقدت بين الشيخ "مبارك الصباح" وبين انجلترا في عام (١٨٩٩م)، وذلك خوفاً من مد خط سكة حديد برلين بغداد الى الكويت، ما افزع بريطانيا صاحبة النفوذ في ايران في حينه، وقد جاء في نص هذه المعاهدة، ان يلتزم الشيخ مبارك ويلزم وارثيه، بان لايستقبل اي وكيل او ممثل لاي حكومة دون الموافقة المسبقة من بريطانيا، ولايتنازل اويبيع اي جزء من مقاطعته دون علم وموافقة بريطانيا»[2].

وكانت هذه الاتفاقية سرية، لم تعلم بها الدولة العثمانية صاحبة السلطة الشرعية على الكويت.ثم عقد شيخ الكويت اتفاقية ثانية عام(١٩٠٠م) تنص على ان يمنع ادخال السلاح الى بلاده. وفي عام(١٩٠٤م) أنشأت بريطانيا مركزاً لبريدها، وفي نفس العام عينت معتمداً سياسياً لها في الكويت.

وفي عام(١٩١١م)تعهد الشيخ مبارك بعدم استثمار موارد الكويت الطبيعية دون موافقة الحكومة البريطانية وفي عام(١٩١٣م) تعهد الشيخ بعدم منح امتيازات البترول في الكويت دون استشارة الحكومة البريطانية.

وفي بداية الحرب العالمية الاولى (١٩١٤) بعثت بريطانيا برسالة الى شيخ الكويت تعترف بها باستقلال الكويت تحت الحماية البريطانية.

وقد اعطى الشيخ" احمد الجابر" امتيازاً لشركة البترول البريطانية للبحث عن النفط،

---

(١) عبد الجميد البطريق:تاريخ اليمن الحديث، ص(٩٥).

(٢) مصطفى الدباغ: الجزيرة العربيةج٢، ص (٣١٢).

فاصبحت مقدرات الكويت بيد بريطانيا حتى عام (١٩٦١م) حيث اعلن استقلالها .

النفوذ البريطاني في امارات الخليج

كانت حكومة الهند «البريطانية» قد خططت للسيطرة على منطقة الخليج، فاقامت شركة الهند الشرقية، عدة علاقات سياسية مع القوى الخليجية المحلية. الا ان القواسم امراء رأس الخيمة كانوا قد وقفوا ضد التوسع البريطاني، وارسوا سيطرتهم على الساحل الشرقي والشمالي للخليج، وامتدت دولتهم العربية الى "بندر عباس، والى شرق افريقيا والشواطئ الهندية والبحر الاحمر، وقد تصدت القواسم ببسالة لشراسة القراصنة البرتغاليين والهولنديين والفرنسيين واخيراً الانجليز الذين حاولوا السيطرة على الخليج وعلى مضيق هرمز، وقد اشترك الاسطول البريطاني مع شركة الهند الشرقية لمقاومة القواسم.

فارسلت بريطانيا في البداية اسطولها لضرب رأس الخيمة بالمدافع عام(١٨٠٦م)،الا انها عادت لتعقد معاهدة امن وسلام مع القواسم في نهاية نفس السنة. ثم غيرت سياستها مرة اخرى لتقوم بحملة ضد القواسم عام (١٨١٠م) لتهديدهم، وتمهيداً لهجمة اكبر لان القواسم بدولتهم القوية كانوا يمثلون خطراً كبيراً على مخططات بريطانيا في الخليج.لذلك استغلت بريطانيا الخلاف الذي دب بين افراد الاسرة فقامت بالدس بين القبائل العربية، تؤلب الواحده ضد الاخرى، واتصلت بحاكم عُمان ودعته للتعاون معها على طرد القواسم من الموانئ الايرانية.

وفي عام(١٨١٩م) ارسلت اسطولاً لضرب الموانئ العربية ورأس الخيمة بالذات لمدة ستة ايام، دافع القواسم عن مدينتهم دفاعاً باسلاً، واظهروا شجاعة فائقة بالرغم من تفاوت القوى بين الطرفين .

كانت لهذه المعركة اثارٌ سيئة على الخليج حيث وضعت بريطانيا حداً للقوى الضاربة وعقدت معاهدات حماية مع مشايخ سواحل الخليج .

اخذت بريطانيا بعد ذلك تعمل على تشجيع الحركات الانفصالية بين الوحدات السياسية مشجعة المشايخ على اقامة" مشيخات" مرتبطة بمعاهدات منفردة،لتلائم مصالحها الخاصة،

فانفرط عقد القبيلة «دولة القواسم» الى قبائل متعددة. خاضعة لسلطة دولة اجنبية باسم معاهدات للحماية.

ومن اهم تلك المعاهدات، معاهدة(١٨٢٠م) وكانت اهم بنودها ضمان سلامة السفن البريطانية والكف عن القرصنة في البحر ثم معاهدة (١٨٩٢م) وهي اهم تلك المعاهدات، ومنعت بموجبها الحكام «المشايخ» من ابرام اتفاقيات، او مراسلات مع اية دولة غير بريطانيا، ومنعتهم ان يتخلوا او يبيعوا او يرهنوا اي جزء من اراضيهم، لأي دولة غير بريطانيا .

كما نصت المعاهدة على حرص بريطانياعلى المحافظة على مصلحة الحكام. ثم عقدت بريطانيا خمس معاهدات مع حكام الدول المتصالحة، وكلها تناولت مصالح انجلترا اولاً. فيما يتعلق باستيراد وتصدير السلاح، وتناول بعضها عدم بيع الاسفنج وصيد اللؤلؤ دون موافقة بريطانيا وقد حدت هذه المعاهدات من سلطة الحكام وكان لها انعكاسات اقتصادية واجتماعية ونفسية سلبية ضارة على منطقة الخليج بأسرها .

وخلال الحرب العالمية الاولى فرضت بريطانيا على المشايخ عدم اعطاء امتيازات بترولية لاي شركة دون موافقتها، حيث ابرمت معاهدة مع البحرين عام(١٩١٤م) ومع مشيخة الساحل المتصالح (١٩٢٢م)

عُمان وبريطانيا

كان الصراع قوياً من اجل السيطرة على عُمان بين البرتغال والهولنديين والفرنسيين والانجليز، حيث اندحرت الدول الثلاث ، الأول الواحدة تلو الاخرى وخسرت مستعمراتها في الشرق الا ان بريطانيا ومنذ تأسيس شركة الهند الشرقية لم تخف اطماعها في منطة عُمان.

وكانت اهداف بريطانيا من السيطرة على عُمان للاسباب التالية: (١)

١- لانها محطة رئيسية في طريق الامبراطورية البريطانية نحو الهند.

٢- اهميتها بعد الثورة الصناعية كمورد للفحم والثروة المعدنية .

٣- الاهمية البالغة التي نتجت عن ظهور النفط .

(١) د. زاهية قدورة . شبه الجزيرة العربية كياناتها السياسية، ص(٣٢٤).

لذلك اخذت بريطانيا في العمل من اجل ذلك، ففي عام(١٦٤٦م) عقدت اول معاهدة بين انجلترا و عُمان، اعطيت بموجبها الحرية للانجليز بممارسة ديانتهم والاحتفاظ بسلطتهم الشرعية والقضائية، وكانت معاهدة(١٧٩٨م) هي التي فتحت الطريق امام" ٧٠٠- ٨٠٠" جندي بريطاني للاقامة في مسقط[٢].

ثم عقدت معاهدة اخرى عام(١٨٠٠م)، وقد نصت على ان توفر انجلترا مبعوثاً سياسياً الى مسقط، وتكون الاتصالات بين بريطانيا وعُمان بواسطته، وان تبقى الصداقة بينهما مادامت الشمس.

واخيراً كانت اتفاقية(١٨٩١م) والتي قيدت السلطان وورثته وحلفاؤه بان لايتخلوا اويرهنوا او يبيعوا او يسمحوا بالاستيلاء على مناطق مسقط وعُمان وتوابعهما الا للحكومة البريطانية وسميت هذه المعاهدة «معاهدة الصداقة، والتجارة والملاحة»

وفي سبيل ان تسيطر بريطانيا على عمان كانت تستعمل اسلوب اثارة الفتن بين القبائل والجماعات وتدس بين الاب والابن، والاخ واخيه وعلى سبيل المثال لا الحصر ان انجلترا دفعت "سالم بن تويني بن سعيد" لقتل ابيه واستلام الحكم محله[٣].

بريطانيا والبحرين

كانت اول معاهدة بين بريطانيا والبحرين بشأن حظر تجارة الرقيق عام(١٨٤٧م) ثم تلتها معاهدة للتعاون والسلام عام (١٨٥٦م)فكرت بريطانيا بوضع البحرين تحت الحماية البريطانية، الا ان حاكم البحرين رفض ذلك. ثم تقدمت بريطانيا في عام (١٨٦١) بمعاهدة جديدة سمتها «معاهدة الصداقة»، وكان تقديمها مصحوباً بجو من التهديد العسكري، اذ قام المقيم البريطاني في ايران مصحوباً باربع سفن عسكرية، ليعرض المعاهدة على الشيخ "محمد بن خليفة" ليوقعها فوقعها وكانت اهم بنودها هو حق بريطانيا ان تكون حكماً في نزاع على المشيخة بقبول حكمها ، واعطى للبريطانيين حق التجارة والاقامة في البحرين دون قيد،الا

(٢) علي فياض: حرب الشعب في عمان ص (٢٦).

(٣) حافظ الشرقاوي، قضية عمان ص (١٤).

ان الشيخ طرد المقيم البريطاني بعد فترة، مما دعاه الى محاصرة البحرين واحراق اسطولها التجاري، ففر الشيخ "محمد" ليتولى اخوه الحكم ويقبل بما أملته بريطانيا عليه.

وقد كان لاختلاف الاخوة وابناء العمومة، ان فرضت بريطانيا احد المشايخ ليتولى الحكم مايقرب من نصف قرن، وفي عهده في عام (١٨٨٠م) وضعت البحرين تحت الحماية البريطانية. حيث وقع شيخ البحرين في عام (١٨٩١م) معاهدة جديدة كانت تشابه بقية معاهدات الرضوخ لبريطانيا التي وقعتها الكويت والامارات العربية ، وبقيت البحرين تحت الحماية البريطانية حتى عام ١٩٧١.

اما بشأن قطر فقد وقع شيخها ايضاً في عام (١٩١٦م)معاهدة مع السير "بيرسي كوكس"، على غرار المعاهدة التي ابرمتها بريطانيا مع شيوخ ساحل عُمان والبحرين، واصبح لبريطانيا بموجبها حق الأشراف على علاقات قطر الخارجية، كما حظرت على حكام قطر ان يتنازلوا او يبيعوا او يرهنوا شيئاً من اراضيهم الا بموافقة بريطانيا، وان تحمي الرعايا البريطانيين في اراضيها، وغير ذلك من امور تجعل قطر تدور في فلك السياسة البريطانية[1] كما هو الحال في بقية اقطار الخليج العربي.

---

(١) د. زاهية قدورة: شبة الجزيرة العربية، كياناتها السياسية ص (٣٨٩).

الاستعمار الايطالي في ليبيا

وقعت ليبيا تحت السيطرة العثمانية في عام (١٥٥٦م)، وقد استطاع ولاتها الاستقلال داخلياً حتى عام(١٨٣٥م) عندما غزاها الايطاليون خلال نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. وعندما تساقطت الاقطار العربية تحت النفوذ الغربي القطر تلو الاخر ، تمسك الليبيون بانتمائهم للدولة العثمانية، لانها الجهة المسلمة الوحيدة التي يمكن ان تدافع عنها في وجه الدول الاوروبية ولأن الحركة السنوسية في ليبيا كانت ذات طابع اسلامي شامل، يهدف الى ايقاظ الامة الاسلامية.

ان ضعف الدولة العثمانية قد دفع الدول الاوروبية الى التخطيط من اجل اقتسام تركة الرجل المريض وكانت انجلترا وفرنسا المخططين ثم دخلت ايطاليا حلبة السباق ، فبدأت بالتغلغل في ليبيا بالبعثات العلمية التي تعمل على نشر النفوذ الغربي،(«بعثة الفرنسيسكان» التي قوبلت بالتسامح الديني) . وعندما تمت الوحدة الايطالية(١٨٧٠م)، اخذت تلعب دورها في ساحل البحر الاحمر الافريقي حيث احتلت ارتيريا عام(١٨٨٥م).

بدأت ايطاليا بفتح المدارس لتدخل الى ليبيا من باب خفي، لتنشر ثقافتها اولاً، ومن ثم انشأت المستشفيات، ثم حصلت على امتياز تأسيس فرع لبنك روما عام(١٩٠٥م) في طرابلس، وبرقة. ونشطت عمليات الزراعة لاغراق اصحابها بالديون ثم اخذت تتحين الفرص لاكمال مشروعاتها في احتلال ليبيا . حيث اتهمت الدولة العثمانية، صاحبة النفوذ في ليبيا، بالعدوان، ومقاومة النشاط الايطالي واضطهاد الرعايا الايطاليين،[1] ومصالحهم. فتقدمت بانذار اليها تطلب فيه الموافقة على احتلال ايطاليا لليبيا، ثم بعد ذلك يتم الاتفاق بينهما على تسوية الاوضاع[2] .

ولكن رد الدولة العثمانية كان ضعيفاً، لذلك وفي ٢٩ أيلول عام (١٩١١م)، ارسلت ايطاليا الى العثمانيين بياناً باعلان الحرب، وبدأت ايطاليا باحتلال طرابلس، ثم اتجهت الى

---

(١) محمد فؤاد شكري، السنوسية دين الدولة ص (١١٧).

(٢) محمد فؤاد شكري مصدر سابق.

المدن الاخرى واهمها برقة، فاحتلتها، ثم احتلت طبرق وبنغازي.

بدأ الجهاد ضد الايطاليين، من قبل الليبيين لاسيما السنوسيين بقيادة شخصيات عربية، مثل " عزيز علي المصري"، ثم ليبيا مثل "عمر المختار".

اعلن الايطاليون بخدعة واضحة انهم انما جاؤوا الى البلاد ليخلصوها من ظلم الاتراك، وليعطوا للناس حريتهم الدينية والاجتماعية.الا ان القائد الايطالي الذي نشر هذا الاعلان قد ارتكب مذابح لاتوصف ضد الشعب الليبي الذين ثاروا ،وكانت ، المقاومة الشعبية شديدة اشترك فيها الشعب بالاضافة لبقايا العثمانيين، مع رجال الحركة السنوسية اتحدوا جميعاً بقوة واحدة من اجل تخليص البلاد من المحتل، فكانت المعارك في كل مكان، واستعملت المقاومة اسلوب الكر والفر، وهي احدى اساليب القتال الشعبي.

الا ان الحكومة التركية اضطرت مع الاسف للمفاوضة في عام (١٩١٢م) بسبب ضعفها ومشاغلها في البلقان تاركة الشعب الليبي للوقوف وحده ضد السيطرة الايطالية ، فعقدت مع ايطاليا معاهدة "لوزان" التي اعترفت بموجبها باحتلال ايطاليا للاراضي الليبية. وعلى الرغم من صعوبة موقف الليبيين الا انهم صمدوا وساعدهم العرب والمسلمون في كل مكان، حيث ترددت اصداء للدعوة للجهاد في الجزيرة العربية، ومصر وسوريا .

استعانت ايطاليا ببقية الدول الاستعمارية منها بريطانيا وقد قاد المقاومة الشعبية خلال الحرب العالمية الاولى "احمد السنوسي"، الا ان انتصار الانجليز وانحيازه الى تركيا في الحرب، ادت الى تغيير القيادة لتصبح بيد "محمد ادريس السنوسي"، فاتفق مع المستعمرين على اقتسام البلاد بسبب ظروف الامراض والمجاعة التي انتشرت في منطقته الصحراوية، واستعملت ايطاليا اسلوب الحكم المباشر لليبيا ، حيث اصدرت قانوناً اصبحت السلطة والسيادة بيد الايطاليين، مع تعيين حقوق المواطنين وواجباتهم[١].

وفي عام (١٩٢٠) اعترف الطليان بالسنوسي حاكماً مدنياً وزعيماً للقسم الداخلي في برقة ومنح لقب «امير».

فقسمت برقة بين الطرفين ايطاليا ولها الساحل، والسنوسي وبيده الداخل الا ان

---

(١) محمد فؤاد شكري: السنوسية دين الدولة، ص(١٠٦).

المقاومة الشعبية، رفضت هذا الاتفاق،فاستمر الجهاد ضد السيطرة الايطالية، مما ادى الى انضمام السنوسي الى المقاومة وقيادتها، الا انه اضطر للخروج من البلاد الى مصر حيث تابع العمل من الخارج، ليتولى قيادة المقاومة من الداخل "عمر المختار".

وقد سجل المجاهدون الليبيون انتصارات عظيمة، ببسالتهم وقيادتهم الحكيمة، ولما اشتد ضغط المجاهدين اضطرت ايطاليا للقبول وفاوضت عمر المختار، حيث قبلت بشروطه، الا انها عادت ونقضت هذا الاتفاق وحشدت قوات ضخمة، حيث سقط عمر المختار اسيراً ، ليحاكم في عام(١٩٣١م) محاكمة صورية ويعدم[١]

و كانت محاكمة عمر المختار تدل على وحشية اخلاق المستعمرين وتمثل اروع معاني الايمان والشجاعة والصبر والكرامة حيث استقبل حكم الاعدام وهو شيخ كبير بقوله «انا لله وانا اليه راجعون» وقد استمرت مقاومة الاستعمار الايطالي، من قبل الشعب الليبي بعد اعدام عمر المختار خلال الحرب العالية الثانية، حيث انهزمت ايطاليا في الحرب العالمية الثانية، وخرج آخر جندي من ليبيا في كانون الاول عام(١٩٤٣م).

اهداف الاستعمار الأيطالي:

كانت اهداف الاستعمار الايطالي في ليبيا مشابهة الى حد كبير للاهداف الاستعمارية العامة، ومنها:

١- ايجاد مستعمرة قريبة من ايطاليا لينتقل اليها الطليان لعيشوا بها عيشة مستقرة من اجل تخفيف الضغط السكاني في ايطاليا.

٢- استثمار اراضي جديدة لسد حاجة ايطاليا من المواد الغذائية.

٣- فتح اسواق جديدة امام المنتجات الايطالية.

٤- ثم اتمها الزعيم الفاشيستي موسوليني عام(١٩٣٩م) باصدار مرسوم جمهوري يعلن ضم ليبيا الى ايطاليا الوطن الام، ويمنح بمقتضاه الجنسية الايطالية لليبيين تشبهاً بالاسلوب الاستعماري في الجزائر وتونس.

اما اساليب ايطاليا الاستعمارية فكانت تعتمد على البطش بالمجاهدين، باسلوب وحشي

---

(١) نقولا زياده، ليبيا في العصر الحديث، ص (١١٠)..

لايمت للحضارة التي ادعوها بصلة، مع احكام بالاعدام بالجملة، فكانوا يحكمون بالظن، والتنفيذ خلال دقائق معدودة، واقامة معسكرات للاعتقال في كل مكان، ثم قاموا بمصادرة جميع الاراضي الخصبة ليسلموها الى المستعمرين الطليان واتوا بنصف مليون ايطالي ليستثمروا الاراضي الساحلية الخصبة ولم يتركوا للسكان الاصليين سوى الاراضي الصحراوية يعيشون فيها .

وبعد خروج الايطاليين من ليبيا في عام (١٩٤٣م)، اعلنت بريطانيا بان المنطقة اصبحت خاضعة لها بموجب احتلالها لها خلال الحرب العالمية الثانية ، وكانت قد اعطت وعوداً بالاستقلال للشعب الليبي[1] الا انها لم تفِ بوعودها فور القضاء على الطليان، مما حدا بالشعب الليبي ان ينظم نفسه للكفاح من اجل نيل الاستقلال الذي حاربوا من اجله طويلاً، فتشكلت هيئات عدة من الشعب، تنادي بمطلب واحد، وهو الوحدة والاستقلال فاجتمع المؤتمر الوطني في العاصمة طرابلس عام(١٩٤٩م) واعلن استقلال ليبيا ووحدتها تحت الزعامة السنوسية، وفي نفس الوقت عرضت القضية على الامم المتحدة التي اصدرت قراراً باستقلال ليبيا بدولة موحدة وبذلك استقلت عام (١٩٥١م) كدولة اتحادية بعد فترة انتقالية .

(١) مجيد خدوري: ليبيا الحديثة ص (٤٦-٤٧) .

محاولات الاصلاح في الدولة العثمانية وأثرها على الوطن العربي

كانت السياسة العثمانية تتمثل في ثلاثة امور هي:

١- الدفاع عن الولايات ضد اية اعتداءات خارجيه، مما جعلها تعتمد على القوة العسكرية البوليسية في الولايات.

٢- تحصيل الاموال الاميرية بأي وسيلة كانت.

٣- الفصل في الخصومات بين الناس.

ولم يكن لدى العثمانيين فهم لواجبات الدولة يتصدى لمعالجة امور الشعب الحياتية مثل التعليم والصحة، والتنمية، والرعاية الاجتماعية.

هذا بالاضافة الى تقسيم المجتمع الى طبقتين متميزتين: الطبقة الحاكمة التركية وطبقة بقية الشعوب العثمانيه. يدعم ذلك اسلوب الشك وعدم الثقة بغير الاتراك، مما ادى الى عدم اشراك غيرهم في السلطة وقد تميزت الدولة العثمانيه بالجمود، بحيث أبقت الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية والثقافية السائدة في المجتمعات العربية كما كانت قبل الغزو العثماني للاقطار العربية، يقابل ذلك التقدم السريع في الدول الاوروبية خلال النهضة والثورة الصناعيه، مع فرض العزلة على الوطن العربي، وحرمانه من الاتصال بالحضارة الحديثة بدعوى الخوف عليه من اطماع الدول الاوروبية الاستعمارية، الا ان هذه العزلة جعلت الاقطار العربية متخلفة مئات السنين عن ركب التقدم العالمي.

كما ان الدولة العثمانية نفسها قد اوجدت هوة سحيقة بينها وبين الدول الاوروبية المجاورة لها، في مجالات العلوم والاقتصاد والفكر كل ذلك في محاولة لحماية املاكها من اخطار التوسع الغربي عن طريق الانغلاق المقصود به الدفاع عن النفس[1].

افاق العثمانيون فرأوا الا مناص لهم من الاقتباس عن الحضارة الغربية وبخاصة في المجالات العسكرية في البداية، حيث بدأ السلطان "سليم الثالث"، بالموافقة على مشروع لاصلاح الجيش باسم النظام الجديد، فأنشأ قوات النظام الجديد بمساعدة عدد من الضباط

---

(١) احمد عبدالرحيم مصطفى: اصول التاريخ العثماني ص (١٧٠).

الفرنسيين، الا ان هذا الاصلاح اصطدم بمصالح الجيش الانكشاري ، حيث قام افراده بالقضاء على السلطان وتعيين ابن عمه محله.

الا ان السلطان محمود استطاع عن طريق تدريب وتجهيز الجيش الجديد، بمساعدة مدربين مصريين، ان يقضي على جيش الانكشاريه، حيث قتل منهم حوالي(٤٠)ألف جندي في العاصمة وقضى عليهم في بقية الاقاليم وكان ذلك في عام(١٨٢٦م) ، وتمثل محاولة الاصلاح هذه مرحلة هامة في تاريخ الدولة العثمانية، كما تمثل بداية التحرك من جديد والرغبة في السير والتطور، وقد نشأ ذلك نتيجة لعوامل ضغط داخلية، وعوامل ضغط خارجية[1] ويمكن ان نجمل مقومات جهود الاصلاح بمايلي[2]

١- ان معظم الهام حركة الاقتباس عن الغرب كان يستوحي من مصادر وانماط فرنسيه، ذلك لان فرنسا كانت تجسد الحضارة الغربية، ولانها الحليف التقليدي للدولةالعثمانية.

٢- ان معظم جهود الاصلاح في البداية انصبت على تحسين واصلاح الجيش، بسبب اعتماد الدولة عليه في سيطرتها.

٣- استثار الاصلاح ردود فعل عنيفة من اصحاب المصالح المكتسبة بدعوى انها مستوحاة من الكفار.

على الرغم من وقوف عدد من الاعيان وامراء الجيش بوجه الاصلاح فان السلطان محمود مضى به قدماً ، ولكنة لم يتم ما كان يصبو اليه، حيث تولى الحكم بعده السلطان"عبدالمجيد"، وتولى الوزارة "رشيد باشا "المصلح المشهور فاستمرت الدولة في عملية الاصلاح حيث صدر:

١- خط شريف كلخانه

يعد هذا المرسوم، مرحلة هامة من مراحل التحديث التي شهدتها الدولة العثما نية منذ القرن الثامن عشر. ففي خط شريف كلخانة الملامح الرئيسة للدساتير التي شهدتها اوروبا

(١))د. جلال يحي: العالم العربي الحديث ص (٩٨).

(٢) احمد عبدالرحيم مصطفى: في اصول التاريخ العثماني ص ( ).

خلال الثلاثينات من القرن التاسع عشر: وكان "رشيد باشا" يرى ان بقاء الدولة العثمانية يستلزم اعادة الوحدة التي كانت مصدرقوة الامبراطورية في أيامها الاولى، وان ذلك لن يتم الا بتطوير المبادئ التي تهتدي بها الحكومة وجعلها شبيهة بالنمط الاوروبي الدستوري. وهدف هذا البرنامج الاصلاحي ان يوضح للدول الاوروبية العظمى ان بامكان الدولة العثمانية التقدم وأنها تستحق الانقاذ.

اصدر الخط في عام (١٨٣٩م) بساحة قصر كولخانه" الزهور" وفي حديقته ذات الزهور البديعة، وقرأه "رشيد باشا" باسم السلطان وقد تضمن هذا المرسوم الذي اعتبر مبادئ دستورية حديثة تنص على تساوي جميع الرعايا في الدولة امام القانون مع المحافظة على الشريعة في نفس الوقت وقد اكد على نقاط ثلاث:[١]

١- ضرورة ايجاد ضمانات لأمن جميع رعايا الدولة على حياتهم، وشرفهم، واملاكهم.

٢- ضرورة ايجاد نظام ثابت للضرائب يحل محل الالتزام.

٣- ضرورة توفير نظام ثابت للجندية بحيث لاتستمر مدى الحياه، بل تحدد مدتها بفترة تتراوح بين اربع او خمس سنوات.

وقد اعتبر خط شريف كلخانة بمثابه"العهد الاعظم" بالنسبة للعثمانيين ، وللمرة الاولى تاكدت المساواة بين جميع رعايا السلطان امام القانون، وبصفة رسمية.

قام رشيد باشا بعد ذلك باصلاح التعليم اصلاحا شاملاًفاصلح نظمه، وعدل الكتب المدرسية وانشأ عدداً من المدارس العليا لتخريج الموظفين وضباط الجيش والبحريه، ثم اصلح الجيش ووضع نظام التجنيد ومدته خمس سنوات، ثم اصدر قانوناً تجارياً على نمط القانون التجاري الفرنسي، وانشأ محكمة مختلطة للبت بالقضايا التجاريه، وجرى انشاء مجلس لمعاونة حاكم الولاية يمثل فيه الاهالي . هذا الاصلاح ادى الى ازدياد الامن على الحياةوالاملاك والشرف. وقد جرى تطبيق الوعود التي تضمنها خط شريف كلخانة خلال جيل من اعوان رشيد باشا، كما ساند السلطان "عبدالحميد" حركة الاصلاح ، وقد ادت هذه الاصلاحات الى انتعاش الامبراطورية بوجه عام وفي المجال التجاري بوجه خاص.

---

(١) احمد عبد الرحيم مصطفى:مصدر سابق(١-٢).

٢- الخط الهمايوني

وهو الوعد الاصلاحي الثاني، والذي صدر عام (١٨٥٦م) بعد انتهاء حرب" القرم" وقد تشابه الخط الهمايوني، مع خط شريف كلخانة بانه صدر بمرسوم سلطاني، وانه جاء بلهجة جادة من الوعود، الا ان الهمايوني كان اكثر دقة في تحديد التغييرات الواجب اجراؤها، وان صيغتة كانت اكثر عصرية، واكثر اقتباساً عن الغرب ؛ وقد تضمن الهمايوني مايلي:

١- الغاء نظام الالتزام والقضاء على الرشوة والفساد.

٢- المساواة في التجنيد بين المسلمين وغير المسلمين.

٣- معاملة جميع رعايا الدولة معاملة متساوية مهما كانت اديانهم ومذاهبهم [1].

٤- المحافظة على الحقوق والامتيازات التي تمتع بها رؤساء الملل غير الاسلامية.

٥- القضاء على حواجز نظام الملل، ليتمتع كل مواطني الامبراطورية بمواطنة عثمانية متساويه.

٦- ان تصبح المسائل المدنية الخاصة بالرعايا المسيحيين من اختصاص مجلس مختلط من الاهالي ورجال الدين المسيحي يقوم الشعب بانتخابة بنفسه.

٧- فتحت معاهد التعليم امام المسيحيين، لتفتح امامهم وظائف الدولة.

٨- السماح للاجانب بامتلاك الاراضي في الدولة كما وعد السلطان بالاستعانة برأس المال والخبرات الاوروبية بهدف تطوير اقتصاد الدوله.

كان من نتائج خط همايوني انعقاد مؤتمر صلح في باريس وافقت عليه الدول الاوروبية في عام(١٨٥٦م)، بحيث تضمنت بنوده احترام املاك الدولة العثمانية واستقلالها وعدم تدخل الدول الاوروبية بشؤونها الداخلية.

اصطدم الاصلاح بحواجز وعقبات من الداخل والخارج، منها ان المرسوم كان قفزة وليس تطوراً للاصلاح، وان الطوائف غير الاسلامية استفادت الى حد كبير من التغلغل الاوروبي في الدولة، في المجالات السياسية والاقتصاديه، مما زاد في ثروة هذه الطوائف ومكانتها ونفوذها بالصورة التي استثارت غيرة المسلمين. وكان المرسوم يقصد الى عثمنة

---

(1)Porter: Turkey: its tls History and progecess

الدولة ، الا ان ذلك لم يتم، حيث ان العناصر المختلفة بدلا من زيادة ولائها للدولة نتيجة اعطائها حقوقها، اخذت تطالب بمزيد من الحقوق والامتيازات، وبالتدريج ازدادت مطالبتها بالاستقلال.

وهكذا فان تدني مستوى التعليم، والاتجاهات المحافظة واتساع رقعة الامبراطورية، وتعدد اجناسها واديانها وعدم تناسق بنائها الاجتماعي، كل ذلك قد أثار العراقيل في وجه الاصلاح المستند الى العثمنة النازعة الى المساواة[1].

ومهما يكن من امر فقد كان للاصلاحات في الدولة العثمانية، تأثيرات واسعة على الوطن العربي نذكر منها مايلي:

١- اقامة نظام تعليمي في عام (١٨٦٩م) بقانون، قسمت المدارس فيه الى عمومية وخصوصية، وجعل التعليم مجانياً واجبارياً لمدة اربع سنوات، وهي المدارس الاوليه، ثم تليها مرحلة الدراسة الرشدية اربع سنوات اخرى ثم قسم التعليم الى مرحلتين سفلى«اعداديه» وعليا"سلطانيه"، وقد انتشرت في البلاد العربيه، انتشاراً غير متساوٍ ، حسب اهمية وقرب المنطقة من المراكز، او وجود المدارس التبشيرية فيها .

٢- كان التقدم الاقتصادي بطيئاً، بسبب عدم تطبيق القوانين الحديثة بدقه، كما ان الاستيلاء على الاقطاع لم يكن شاملاً،حيث صدر في عام(١٨٥٨م) قانون الاراضي الذي اقر حق الملكيه ، مما ادى الى ظهور الملكيات الزراعية وخاصة في سوريا والعراق .

٣- ازدياد الواردات الاجنبية التي استفادت من قلة الرسوم الجمركية مما الحق اضراراً بالحرف المحلية .

٤- اعادة تنظيم الولايات، وقيام مجالس استشارية فيها ، كان القصد منها اشراك السكان في بحث المسائل الخاصة بولايتهم، وقد طبق هذا النظام على بعض الولايات التي افادت منة في الادارة المحليه، وقيام مايشبه النظام اللامركزي مما ساعد على انصهار الطوائف السورية في شعب واحد .

---

(١) احمد عبدالرحيم مصطفى: في اصول التاريخ العثماني، ص (٢١٦).

٥- نمو الطبقة الوسطى المستنيره، التي اخذت تدعو الى الحرية والمساواه، وحملت اخيراً لواء التحرير.

٦- من خلال الحقوق التي نالتها الطوائف الدينية الاخرى ، استطاعت الدول الاوروبية استغلال ذلك، عن طريق البعثات التبشيريه، وفتح المدارس الخاصه، والتي كان هدفها استعمارياً ، مع انها افادت، ثقافياً عن طريق احياء الادب العربي، وتعليم اللغة العربية .

٧- انتشار الصحف ، مما أثار يقظة فكريه، وظهور منتقدين للسياسة التركيه، وقد ادى ظهور المطابع الى انتشار الكتب المطبوعه، وزيادة الصحف والدوريات العربية وبالتالي زيادة عدد المثقفين ، وانتشار الافكار الجديدة الخاصة بالامة والحكومة والتقدم ، مما ساعد على مقاومة السلطة المطلقة عن طريق اعلان الدستور وايجاد حكومة مسؤولة امام برلمان منتخب من قبل الشعب ليكون ممثلا حقيقيا له.

عوامل اليقظة العربية

كان ولاء العرب للدولة العثمانية منطلقاً من الاستجابة للعاطفة الدينيه، الا ان هذا الولاء قد تبدل الى كراهية، نتيجة لمساويء الحكم العثماني ، الذي كان يعتمد نظام السيطرة الهادفة الى الاستفادة القصوى لمصلحة العنصر التركي.

وما ان اطل القرن التاسع عشر الا وكانت قدتبلورت فكرة الحق الفردي والجماعي على الدولة وظهور المصلحين، وبالتالي المناداة بالمساواة وكان من اهم اسباب اليقظة العربية العامة مايلي:

١- المؤثرات الغربية على اختلاف انواعها.

ومنها بعثات التبشير الغربية ، مثل "البعثة البروتستانتية " الامريكية التي كانت مدرستها في بيروت بداية لانشاء "الجامعة الامريكية"، وبعثة اليسوعيين الذين اسسوا "الجامعة اليسوعيه"، كما نشروا المدارس في مراكز اخرى في بلاد الشام في كل من دمشق وحلب ولبنان.

ومن المؤثرات الغربية حملة نابليون الى مصر وبلاد الشام وكان تأثيرها سياسيا، حيث نبهت اذهان العرب الى الخطر الخارجي المتمثل بالمد الغربي الى الشرق، كما اثارت قضية التفاوت بين ماهم عليه من تقدم، وما العرب عليه من تخلف.

ومن تأثيرات الغرب، قيام فئة من علماء اللغة والدين والعلوم والفنون، الغربيين بالتخصص بدراسة الشرق، هادفين الى تحقيق اغراض سياسية واقتصادية ، وتبشيرية سموا" بالمستشرقين"، وكان لهؤلاء تأثيرٌ قوي، بدراسة نفائس العرب من اداب، وعلوم ، فاحيوا بذلك روح اليقظة ونبهوا العرب الى عظمتهم في فترة الحضارة العربية الاسلاميه، وبذلك كان لهم دور فعال في احياء التراث، واستثارة النهضة العربية الحديثة.

٢- التنظيمات التي وضعتها الدولة العثمانية: وما اثارته لدى الشعب، من مبدأ المساواه، الى عدم معاقبة الشخص دون محاكمة، وضرورة وضع مشروع لابطال المتاجرة

بالوظائف التي كانت سبباً رئيسياً في فساد الحكم[1].

وعلى الرغم من ان هذه التنظيمات قد وضعت مبدأ المساواة على الورق، الا انه لم يطبق على ارض الواقع، مما ادى الى اتساع الحركة نحو نيل تلك الحقوق التي تنبهت لها الشعوب العثمانية.

٣- اثر الحكم المصري زمن محمد علي باشا وابنه ابراهيم:

حيث قام محمد علي بارسال البعوث العلمية الى فرنسا، فاستفادت من نظمها العلمية وطبق هذا بداية في مصر، حيث قسم التعليم الى ابتدائي وثانوي وعالي وفتحت المدارس في بلاد الشام عندما احتلها "ابراهيم باشا" على نطاق واسع لاسيما العالية في دمشق وحلب وانطاكيا، وعندما ترك بلادالشام، اتجه الاهالي الى فتح مدارس خاصة على غرار المدارس المصرية والاجنبية التي افتتحتها البعثات التبشيريه، والتي ازداد نشاطها هي الاخرى نتيجة الحكم المصري.

بالاضافة الى قيام مطبعة في الشام ومصر لنشر الكتب باللغة العربيه، مما فتح افاقاً جديدة أمام التعليم، وقد ساعد ذلك على وضع الاسس الاولى للاهتمام بالتراث العربي، ومع الاحتكاك بين الشعب العربي في مصر بلاد الشام تيقظ الشعور القومي العربي في المنطقة العربية

٤- ظهور رواد الفكر العربي:

وكان من هؤلاء الادباء "ناصيف اليازجي" الذي عمل مع زملائه على احياء التراث العربي، "وبطرس البستاني" الذي وضع قاموسا عربياً ودائرة معارف عربيه، واصدر صحيفة في سوريا تدعو الى الوحدة والتكاتف اسمها "نفير سوريا" ، وهي اول صحيفة سياسية دعت الى الوحدة العربية.

ومن المفكرين والمصلحين "عبد الرحمن الكواكبي"، الذي كان يدعو للعودة الى القرآن والسنة، وتصوردولة اسلامية موحدة مبنية على المبادى السامية ، وقيام هيئة امم اسلامية موحدة تجتمع في مكة المكرمه، بكتابه "ام القرى" ودعا الى المساواة بين العرب والاتراك وهاجم

---

(١) د. محمد صالح منسي:حركة اليقظة العربية في الشرق الاسيوي، ص (٥٩).

الاستبداد بكتابه "طبائع الاستبداد".

وكان من الشخصيات المؤثرة على النهضة العربية ،"مدحت باشا" الذي كان من رجالات الحكم في الدولة العثمانيه ، حيث عمل والياً في بغداد ودمشق، وقام بالعمل على قيام دولة حديثه، فنظم توزيع الاراضي، وانشا المدارس، والمستشفيات، ونشر الامن مما ادى الى استقرار الاوضاع ونشر الطمانينة بين افراد الشعب .

٥- تاثير الصحافه:

حيث صدرت عدة صحف سياسية ومجلات علميه، لعبت .دوراً هاماً في نشر الافكار الحديثه، وقد ظهرت هذه الصحف في منتصف القرن التاسع عشر وكانت اول صحيفة في بلاد الشام صدرت في بيروت هي"حديقة الاخبار"، في عام (١٨٥٧)[١] وقد اصدر" ابراهيم اليازجي" مجلتي"البيان والعيناء" في عام (١٨٨٣م)، ثم صدرت عدة صحف اخرى حملت لواء الفكر العربي الموحد والاصلاح ، وكانت اشهر تلك الصحف "الجوائب" التي اصدرها "احمد فارس الشدياق" في اسطنبول وانتشرت حيث انتشرت اللغة العربيه، وعنيت بالسياسة الدوليه. وعلى العموم فان هذه الصحف قد اسهمت في نشر الثقافة واغنت الفكر العربي بمناقشاتها وابحاثها. وقد ساعد على انتشار الدراسة ، وسهل ظهورها انتشار المطابع.

٦- افتتاح المدارس وانتشار التعليم :

لم تهتم الدولة العثمانية في التعليم، مما ادى الى تفشي الامية في كل ارجاء الدوله. وقد كانت المدارس محدودة جداً في الولايات العربيه، حيث كان التعليم الثانوي مقتصراً فقط على مراكز الولايات .وفي كل قضاء عدد بسيط من المدارس" الرشدية والابتدائية" ولكن العرب في عصر النهضة بدأوا بالاهتمام بالتعليم وتحملوا بانفسهم أعباءه فاعتمدوا في البداية على التعليم في الكتاتيب لتعليم القراءة، والكتابه، وتحفيظ القرآن كما ان التعليم في المساجد لم ينقطع وكان على شكل حلقات لتدريس علوم الدين واللغة وكان اشهر تلك المساجد" الازهر" في القاهره، "والنجف الاشرف" في العراق، "والجامع الاموي" في دمشق، "وجامع القرويين" في المغرب، وكان لهذه المساجد وحلقاتها اثر كبير في تخريج رجال على مستوى عالٍ من العلم

---

(١) انظر العرب والعثمانيون (١٥١٦-١٩١٧م) ص(٥١٢).

والوطنيه، فتخرج منها "الكواكبي، محمد عبده، والسنوسي، وغيرهم" وكان التعليم الحديث موازٍ للتعليم في المساجد حيث اسست البعثات التبشيريه، مدارس من اجل نشر ثقافتها بالاضافة للعلوم المختلفه، مع اهتمام خاص باللغة العربية وقد دفع نشاط المدارس التبشيرية المختلفة رجال الدين الوطنيين في الشام على اختلاف مذاهبهم الى مضاعفة نشاطهم التعليمي بفتح المدارس المختلفة من اجل المحافظة على كيانهم[1] وقد لعب المسيحيون دوراً نتيجة اتاحة الفرصة لهم بتلك المدارس،واتيح لهم فرصة الاطلاع والبحث في تاريخ العرب ولغتهم وآدابهم[2].

وكانت اولى المدارس التبشيرية في المشرق الاسلامي في لبنان حيث تأسست مدرسة تبشيرية بروتستانتية باسم "الكلية السورية" التي تحولت الى الجامعة الامريكية عام (١٨٦٤م)، كما تأسست في نفس الوقت مدرسة تبشيرية كاثوليكية، تحولت فيما بعد الى "جامعة القديس يوسف" اليسوعية وقدحملت لواء التعليم العالي في بلاد الشام. وقد تخرج من هاتين المدرستين اوائل رجال النهضة العربية، "بطرس البستاني،ناصيف اليازجي" وغيرهم.

---

(١) د. عبدالكريم رافق: العرب والعثمانيون، ص(٥١٣).

(٢) د. محمود صالح منسي: حركة اليقظة العربية، ص (٦٤).

حركات الاصلاح الاسلامية

«الوهابية ، السنوية ، المهدية ، الجامعة الاسلامية»

الوهابية :

مؤسس هذة الحركة[1] هو "محمد بن عبدالوهاب" (١٧٠٣-١٧٧٩م) نشأ في نجد، ببلدة "العيينه"، تتلمذ على والده، الذي كان قاضياً للعيينة ، درس الفقة على مذهب الامام احمد بن جنبل طاف بعدد من البلاد الاسلامية المجاورة زار الاحساء، وأقام بالبصرة اربع سنوات، وفي بغداد خمس سنوات، وزار بلاد فارس ثم عاد الى بلدة "الحريمله" حيث انتقل والده اليها، وهناك اختلف مع علمائها، وكان موضوع جداله الوحدانية لله، لذلك اطلق على اتباعة اسم الموحدين واما اسم "الوهابية" فقد اطلقه عليهم خصومهم[2].

بدأ بدعوته الى الاصلاح الديني، والعودة الى تعاليم الاسلام الاساسية وتنقيتة من الشوائب والبدع التي ادخلت عليه[3] وقد ركز ابن عبدالوهاب على افكار البدع المستحدثه، وقد ادعى ان المسلمين نسوا او تناسوا العقيدة الاسلامية الواحدة، وراحوا يقدسون الاولياء ويحجون الى قبورهم، ويتمسحون باضرحتهم، ويقدمون لهم النذور ويستشفعون بهم لجلب منفعة او لدفع ضرر، وانتشرت هذة الاضرحة في كل مدينة ولا سيما في نجد، مركز دعوة ابن عبدالوهاب.

ارتكزت دعوة محمد بن عبدالوهاب على ثلاثة مبادىء رئيسة :.

١- التوحيد: اي الدعوة الى الله وحده والتعبد له دون شريك. معتمداً على القرآن والسنة واثر السلف.

٢- نادى بالجهاد المشروع في سبيل نشر هذه الفكرة.

٣- الاجتهاد: بشرط عدم مخالفته لنصوص القرآن والسنة وأثارالسلف، وانكر ابن عبد الوهاب تقليد احد غير الائمة الاربعه، لاسيما مذهب الشيعه ولم يتبع

---

(١) د. عبدالكريم رافق: العرب والعثمانيون، ص(٥١٣).

(٢) د. محمود صالح منسي: حركة اليقظة العربيه، ص (٦٤).

(٣) د. زاهية قدوره: شبة الجزيرة العربيه، ص (٢٤).

الوهابيون مذهب ابن حنبل في كل الاحوال وقد حاول الوهابيون منع الناس من القيام بعدة اعمال لانها بعيدة عن التوحيد، وتقرب الناس من الشرك برأيهم وهي:[1]

١- دعاء غير الله، او دعاء احد مع الله. كدعوة الاولياء.

٢- الاستعانة بغير الله من الانبياء والرسل والاولياء الصالحين وبصورة خاصة عند القبور.

٣- التوسل بالنبي لمعنى غير التوسل لله بالطاعة او بالدعاء او الشفاعة

٤- الاستعانة بغير الله واسمائة وصفاته، ومنه خرافات التعاويذ.

٥- الحلف بغير الله.

٦- زيارة القبور، اذا لم يكن المقصود منها الذكرى والاعتبار، واذا كانت مصحوبة ببدع او اذا كانت لطلب الحوائج او الشفاعة من اصحابها.

نشر الحركة الوهابية وآثارها

لما وجد محمد بن عبد الوهاب ان دعوته، لم تلق اذاناً في بلدته، ارتحل الى "الدرعيه"، ليلتقى بمحمد بن سعود الذي استجاب لدعوة الشيخ، وعاهده على حمايته ونصرته، وارتبطت الاسرتان بالمصاهره، ومنذ ذلك الحين اصبح لآل سعود شأن يذكر واثر فعال في نجد والجزيرة العربية وتوحيد جزء كبير منها، ولاتزال افراد اسرة محمد بن عبدالوهاب، وهم يدعون بآل الشيخ،يتولون منصب القضاء الشرعي، ووزارة العدل، وهم قمة السلطة التي تفتي في المملكة العربية السعودية[2].

ومن المسلم به ان تأييد حكام الدرعية لدعوة الشيخ، زاد من فرص انتشارها بدرجة كبيره، كما انه من المسلم به ايضاً ان هذه الدعوة كانت الاساس الذي قام عليه بناء الدولة السعودية الاولى ولذا كان طبيعياً ان يلعب الشيخ محمد بن عبد الوهاب دوراً بارزاً في توجيه الدولة الجديدة وادارتها[3].

(١) د. ابراهيم خليل احمد: تاريخ الوطن العربي في العهد العثماني، ص(٢٤٤).

(٢) د. زاهية قدره: شبة الجزيرة العربية كياناتها السياسية، ص(٢٤).

(٣) عبد الله الصالح العتيبي الشيخ محمد عبد الوهاب، حياتة وفكره.

وكما وجدت الحركة انصاراً ومؤيدين ، وجدت معارضة ايضاً ، حيث اتهمت بالمغالاة والتزمت الشديد، وربما كان مرجع ذلك الى ان كثيراً من انصار الدعوة كانوا من البدو، الذين اساؤا فهم المبادئ فغالوا في تكفير من لم يعتنقوا مبادئهم، واوجبوا قتلهم، وشنوا من اجل ذلك غاراتهم على المدن المقدسة في العراق سنه(١٨٠١م)، ثم اتجهوا نحو بلاد الشام وهددوا دمشق وحلب[٢].

كما يرى المؤرخ المصري." احمد عبدالرحيم مصطفى" بان الوهابيين، لم يمسوا الحياة العقلية ولم يعملوا على ترقيتها الا في نطاق التعليم الديني، ولم يستجيبوا لمطالب المدنية الحديثة.

كما اثارت الحركة الوهابية معارضة نفر آخر وخاصة رجال الدولة والعلماء، لانها بمبادئها اعتبرت المدن والدول والتي تنتشر فيها البدع دارحرب وجهاد.

وكان الوهابيون[٣] اذا دخلوا بلداً استعملوا العنف لاجبار اهلها على اعتناق مبادئهم، فعند دخولهم مكة مثلاً، هدموا كثيرا من القباب الاثريه، ولما دخلوا المدينة نزعوا كثيراً من الزينة والمعادن الثمينة والحلي التي كانت تزين قبر الرسول صلى الله عليه وسلم.

كما ان سيطرة السعوديين على الحجاز، جعلهم يمنعون حجاج الشام وتركيا ومصر من الدخول الى الارض المقدسه، حتى ان الوهابي نادى بعد انقضاء الحج الا ياتي الى الحرمين بعد هذا العام من يكون حليق الذقن، وكان ذلك في عام (١٢٢٢هـ) وبرغم ما رافق الحركة الوهابية من مشاكل، وما اتصف بة اتباعها من تزمت، واعتبار مخالفي تعاليمهم نجس كفرة اجازوا قتلهم، الا ان هذه الحركة قد هزت الركود الذي كان علية المجتمع العربي، فانتشرت اصداؤها في الولايات العربية .[٣]

---

(٢) د. ابراهيم خليل احمد، تاريخ الوطن العربي في العهد العثماني، ص(٢٥١).

(٣) د. عمر عبدالعزيز عمر: تاريخ المشرق العربي، ص (٢١٦).

(٣) الجبرتي: تاريخ الجبرتي جـ٤ ،ص (٥٣).

الحركة السنوسية

بدء الحركة السنوسية:

تنسب هذة الحركة الى محمد السنوسي، الذي ولد في قرية "الواسطه" قرب مستغانم في الجزائر، وكانت عائلته مشهورة بالعلم، درس في مدينة فاس بجامع القرويين، درس الحركات الصوفية خاصة القادرية والشاذلية[١].

وقد تأثر السنوسي باحوال العالم الاسلامي في عصره التي اشعرته بضعف المسلمين اقتصادياً، وخلقياً ودينياً واجتماعياً، وبضعف السلطة العثمانية، وضغط العالم المسيحي على المسلمين لاستغلالهم سياسياً وممارسة الحروب الصليبية بصورة اخرى، لذلك اصبح هدفه اقامة مجتمع مسلم يفهم افراده الاسلام و يرتبطون بشريعة الله ويكون بامكانه صد اعداء الاسلام ورد اطماعهم[٢].

وفي سبيل زيادة التعرف والاطلاع على احوال العالم الاسلامي والتزود من العلوم الاسلاميه، زار طرابلس، وبني غازي، ثم القاهره، ليقيم في الازهر، محاولا نشر آرائه في اصلاح العالم الاسلامي ، ثم توجه الى الحجاز حيث اقام فيها عدة سنين (١٨٣٨-١٨٤٠م)، ثم حاول العودة الى الجزائر، الا انه استقر بطرابلس ليبدأ وضع الحجر الاساسي لحركته بأنشاء "الزاوية البيضاء" في الجبل الاخضر فكانت ام الزوايا السنوسيه.

افكار الحركة السنوسية

في سبيل اصلاح العالم الاسلامي، وضع السنوسي مجموعة من الافكار التي تدعو الى السنوسية، والتي كانت تشكل مركزاً دينياً وثقافياً واجتماعياً وعسكرياً ، وهي بمثابة المؤسسة الحكومية وكان تنظيمها[٣] يقوم على ما يلي :

- ان يكون لها قائد يسمى "مقدم الزوايه" يوجه الاهالي ويحل مشاكلهم.

---

(١) د. ابراهيم خليل احمد: تاريخ الوطن العربي، ص (٢٥٥).

(٢) د. عمر عبدالعزيز: تاريخ المشرق العربي، ص (٢١٨).

(٣) د. احمد الشلبي: التاريخ الاسلامي، جـ٧، ص (٥).

- يقوم اهل الزاوية بالانتاج الزراعي اللازم لهم، حيث ان للزاوية اراضي زراعية خاصة بها، وآبار جوفية، وصهاريج لحفظ المياة وتزرع ارض الزاوية جماعياً وبدون اجر، وانتاجها ينفق على احتياجات فقرائها وضيوفها، غذاءً وكساءً وتعليماً، وما بقي يذهب الى المركز الرئيسي للطريقة.
- للزاوية شيخ يتولى شؤون التعليم والقضاء.
- للمقدم وكيل يشرف على الزاوية وشؤون الادارة والمال والاقتصاد.
- للزاوية مجلس يتألف من المقدم والوكيل والشيخ وروساء القبائل المجاورة للزاوية ووجوهها.
- في الزاوية مسجد للصلاة والتعليم ومنزل للمسؤولين وفيها بيوت للضيوف، ومتاجر وفرن،وسوق.

كانت اولى الزوايا،" زاوية البيضاء" في الجبل الاخضر ومن ثم انتقل السنوسي الى واحة الجغبوب، لانها تقع في مركز متوسط، بين برقة وطرابلس والسودان الغربي، وقد انشأ بها مدرسة دينية، ومكتبة ضمت آلاف المجلدات في الفقه، والحديث، والتاريخ، الفلك، الفلسفة، والتصوف .

انتشرت الزوايا وشاع بناؤها في ليبيا ومصر. وشبه الجريرة العربية والسودان، وتونس، حيث احصى المؤرخون عددها بحوالي مائةً وثمانين زاوية، وقد حولت تلك الزوايا التي انتشرت في مناطق صحراوية الارض القاحلة الى واحة خضراء.

ويمكن ان نجمل اهداف الزوايا بما يلي:

- نشر الاسلام في قلب افريقيا بين القبائل الوثنية.
- محاربة البدع والعادات والتقاليد الجاهلية وتطبيقها وذلك من خلال مؤسسة الزاوية .
- الدعوة الى محاربة المستعمرين في كل مكان في العالم الاسلامي.
- الامر بالمعروف والنهي عن المنكر.[1]

وقد كان للحركة السنوسية وزواياها اثار بعيدة المدى في العالم الاسلامي حيث

---

(١) د. ابراهيم خليل: تاريخ الوطن العربي في العهد العثماني، ص (٢٥٧).

استطاعوا تحقيق مايلي:.

- دخول الاسلام واكتساب الانصار في النيجر، والكونغو، والكاميرون والداهومي، وحول بحيرة تشاد التي اصبحت مركزاً اسلامياً في اواسط افريقيا ودان بتعاليمة من حولها حيث بلغوا اربعة ملايين من السكان الافارقة[1].
- التوغل في المناطق التي شهدت محاولات الغرب الاستعماري في شمال ووسط افريقيا للسيطرة عليها ووقفوا الى جانب سكانها في نضالهم.
- تحمل المسؤلية الكاملة لحركة المقاومة الليبية ضد الاحتلال الايطالي حتى ان العثمانيين عند انسحابهم من ليبيا ارسلوا الى السيد" احمد الشريف" في الجنوب امراً (فرماناً)، ابلغه اسناد امر الامة الليبية الى سيادته واخباره بأن الخليفة منح الامة الطرابلسية استقلالها تاركاً لها الحق في ان تقررمصيرها وتدافع عن نفسها. ويمكن اعتبار هذة الحادثة بداية لاستقلال الامارة السنوسيه[2] بالاضافة الى ذلك فقد عملت السنوسية على تقديم النموذج العملي للمجتمع الجديد المنشود وتمثل ذلك بالزوايا التي اقامتها، كما سبق ان قدمنا مراكز للنشاط الاقتصادي والسياسي والاجتماعي ومن هنا كان اهتمامها بالزراعة والتعليم والتدريب على الفروسية واستخدام السلاح.

---

(١) د. ابراهيم خليل احمد: مصدر سابق ،ص (٢٥٨).

(٢) د. نقولا زياده: ليبيا في العصر الحديث، ص (٨٤).

الحركة المهدية

دخل السودان في حوزة الحكم المصري في عهد محمد علي باشا (١٨٢٠)م. وقد حقق المصريين في السودان امرين مهمين اولهما تحديثه، وثانيهما توطيد الوحدة فيه[1].

الا ان الاوضاع المتدهورة في مصر خلال حكم" الخديوي اسماعيل، والخديوي توفيق"(١٨٦٣-١٨٩٢م)، قد انعكست على السودان مما ادى الى اشتداد الضائقة الاقتصادية، وانتشار الفساد الاداري فيه. حيث ساعدت الضغوط السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي تعرض لها المجتمع السوداني على ظهور رجل عربي سوداني اسمه" محمد احمد بن عبد الله "الذي ولد سنة (١٨٤٤م)، الذي لقب نفسه بالمهدي، وقد نسبت حركته اليه "المهدية" .

كانت ثقافة المهدي دينية اسلامية، نتيجة انكبابه على العلم والدراسة، وبساطته في الحياة ونزوعه الى الزهد، قد ادت الى قدرته العظيمة على الاقناع، وهذا ادى بدوره الى التفاف الالاف من العبيد، والفلاحين، والبدو، والحرفيين، والفقراء، والدراويش حول دعوته، وقد اطلق على هؤلاء "الانصار".

ومما زاد في التفاف الناس حوله الشعور القومي، إذ وجد الناس ان بحركته رفعة وفخر لهم لانه واحد منهم.

مبادئ الحركة المهدية

ترتكز الحركة المهدية على أسس رئيسة ابرزها التوحيد والاجتهاد والجهاد من الناحية الدينية.

١- فبالنسبة للتوحيد فان الحركة المهدية اكدت على اهمية التوحيد والعودة الى الشهادة وتخليص الاسلام من البدع والعادات الضارة.

٢- فيما يتعلق بالاجتهاد، فقد رأت المهدية في توزيع المسلمين على مذاهب وطرق

---

(١) د. ابراهيم خليل احمد: مصدر سابق،ص (٢٦١).

سبباً في اضعافهم لذلك اكد المهدي على القرآن والسنة على اساس انهما مصدرا الضياء، ودعا الى العودة الى التشريع كما كان في عهده الزاهر، وهاجم الفقهاء واحرق كل كتب التفسير والفقه (باستثناء الصحيحين واحياء علوم الدين للغزالي) .

٣- وبصدد الجهاد، فقد دعا المهدي الى العمل على تخليص السودان من النير الاجنبي،حيث عمل منذ البداية على استخدام العنف الثوري والحروب لتحقيق مبادئه واهدافه وعد النضال ضد السلطة الحاكمة وموظفيها الفاسدين بمقياس الاسلام الحقيقي، جهاداً في سبيل الله[1].

ثورة المهدي

اعلن محمد احمد المهدي ثورته سنة (١٨٨١م) وكان اهم اهدافها:

- وضع حد لتسلط الباشوات والموظفين الاتراك والجراكسة والاوروبيين.
- ايقاف النهب الاستعماري للسودان.
- محاربة الفساد الاداري وارهاق الشعب السوداني بالضرائب ذات المسميات المختلفه.
- الدعوة الى رفض السلطة العثمانيه.
- اتصاله مع الثورة العرابية وتعاطفه معها، حيث كان يتفق معها لمقاومة الاستعمار البريطاني.
- التطلع الى تحرير مصر من الحكم العثماني والاوروبي واليهود.

عندما شعر الحاكم المصري بخطورة حركة المهدي، ارسل اليه في مقره في "آبا"، طالباً منه الحضور الى الخرطوم قائلاً له، اذهب الى الخرطوم، واحظ بالمثول بين يدي سيد البلاد لكي تبرئ ساحتك. فرفض المهدي هذا الطلب وعندما ارسلت حملة عسكرية ضده تمكن المهدي من ابادتها، انسحب بعدها نحو جبل كردفان في محاولة لتركيز الحركة والاستفادة من مواقعها الحصينه، وسرعان ما كثر اتباعه وتحولوا الى جيش يعد بالالاف.

---

(١) تاريخ الوطن العربي في العهد العثماني، ص (٢٦٦).

استطاع المهدي سنة(١٨٨٣م) تحرير" الابيض" عاصمة كردفان واتسع نطاق ثورته في مناطق السودان الاخرى، وانزل الهزائم بالقوات المصرية واقام دولته المهدية.

الا ان بريطانيا ارسلت قوات كبيرة اسقطت الدولة المهدية في(٢٥تشرين الثاني سنة ١٨٩٩م)واقامت نظام حكم جديد للسودان باسم الحكم الثنائي الانجليزي المصري.

كان للحركة المهدية اثاراً واسعة، من حيث انها حركة وطنية استهدفت تحرير الانسان السوداني من العبودية وتحرير البلاد من السيطرة الاجنبية وتحقيق الاستقلال واقامة دولة جديدة ، تعمل على تطبيق العدل بالمقياس الاسلامي كما ان الحركة المهدية حركة قوميه، لموقفها في رفض السلطة العثمانيه، وسياسة الاتحاد والترقي في التتريك، وموقفها ضد السيطرة البريطانية على مصر، وتأييدها للحركة العرابية كما كان من تاثيرها ، قيام فلسفتها على الغاء الفوارق الطبقية بين الناس وذلك عن طريق دعوة انصارها والمؤمنين بها الى الانتفاع بالاراضي ومصادر الثروة بما يقف عند حدود الاحتياجات دون اسراف وتبذير، والتنازل عما زاد عن ذلك القدر لمن يحتاج اليه من اخوانهم، وان تكون مصادر الثروة ذات الاهمية المشتركة بين الناس ملكية عامه، ترصد مواردها على الانفاق العام، وابطل الرتب والالقاب والمساواة بين الاغنياء والفقراء.

ان هذه سمات عظيمة لخصائص الحركة المهديه، لذلك كانت واحدة من ابرز حركات النهضة العربية الحديثة، التي تصدت للتحديات التي فرضها عليها اعداؤها في ذلك التاريخ. وقد كان لها اثرٌ كبيرٌ في حياة السودان السياسية والاجتماعيه، وفي مجرى الفكر السياسي والنهضة العربية.

حركة الجامعة الاسلامية

كان وضع العالم الاسلامي سيئاً قبيل نهاية الحكم العثماني، وذلك نتيجة اقتسام الاستعمار الغربي اجزاء واسعة منه، حيث سميت الدولة العثمانية بالرجل المريض، لاتستطيع الدفاع عن نفسها اوغيرها من اجزاء وطن المسلمين، حيث كانت بريطانيا تسيطر على مصر والسودان، والهند، وافغانستان، وبدأت تمد نفوذها على اطراف الجزيرة العربية، كما احتلت روسيا القوقاز، وسيطرت هولندا على اندونيسيا، وفرنسا على الجزائر وتونس، ولم يكتف المستعمرون بذلك بل زادت مطامعهم بمحاولة اقتسام البقعة الباقية من اقسام العالم الاسلامي لاسيما الدولة العثمانية، وفي هذه الظرورف الصعبة ظهرت فكرة الجامعة الاسلامية بين المستنيرين من المسلمين وكان من هؤلاء.

- السيد جمال الدين الافغاني.

يعتبر الافغاني الاب الروحي والعقل المدبر للجامعة الاسلاميه، وقد ترك اثراً عميقاً على العالم الاسلامي في العصر الحديث، وفي الجزء الاخير من القرن التاسع عشر.

اعتمدت حركة الافغاني على هدف رئيس، وهو تخليص الاسلام من الشوائب التي علقت به، واصلاح المساوئ الدينية والاجتماعيه، كما كان يعمل على صد النفوذ الاوروبي، لانه كان يفسر اسباب الاستعمار الاوروبي، ويرى ان هذه الحركة في اساسها ديني، فهي حركة صليبية موجهة ضد الاسلام[1]. كان الافغاني في بداية دعوته يرفض اعطاء اي وزن للفكر القومي والخصائص القومية مكتفياً بوحدة العقيدة[2].

لذلك كان الافغاني في هذه المرحلة من تفكيره يرى ان للمسلمين بديلاً عن القومية يفضلها، وفية عنها غناء، الاوهو اتحادهم في الملة، في ظل حكم مثالي يحافظ على الشريعة. وان رابطة المسلمين الملية اقوى من رابطة الجنسية واللغه[3] ومن هذة الفكرة، تأثر موقف

---

(١) د. محمد صالح منسي: حركة اليقظة العربية ،ص(٧٧).

(٢) محمد عماره: الاعمال الكاملة لجمال الدين الافغاني، ص (٤١-٤٢).

(٣) العروة الوثقى"مقال الجنسية والديانة الاسلامية ص(٥) عن د. محمد صالح منسي، مصدر سابق ص (٧٩).

الافغاني من الدولة العثمانية، سيما ان الاستعمار الغربي كان يتربص بها، وان الدولة العثمانية يمكن ان تحمي العالم الاسلامي من ذلك الاستعمار وفي المرحلة الثانية من تفكير الافغاني، اقر بقوة الرابط القومي، فقد كان العصر الذي يعيش فيه عصر القوميات في اوروبا، فتحول الافغاني الى رأي جديد يقول"ان رابطة المسلمين الملية مع رابطة اللسان اقوى من الروابط الجنسيه"[1]

ويبين في موقع آخر توكيد الصلة بين الاسلام والعروبة، فيذكر ان اللسان العربي هو لسان الدين... وان كان لغير المسلمين، ولم يزل من اعز الجامعات واكبر المفاخر[2]وقد قاده هذا التفكير الى حد المطالبة بتعريب الدولة العثمانية، لانها لو تعربت وانتفى بين الامتين النعرة القوميه، وزال داعي النفور والانقسام بين التركي والعربي، وصاروا امة عربية بكل ما في اللسان من معنى، وما في الدين الاسلامي من عدل لما كان من دول الارض اغنى منهم مملكة واعز جانباً وامنع حوزة.

عبدالحميد والجامعة الاسلاميه

لجأ السلطان "عبدالحميد الثاني" من اجل مواجهة موقف الدولة من الداخل والخارج، الى سياسة اسلامية، استخدمها ضد معارضيه، وذلك بابراز السمات الدينية" المقدسة" لمنصبه بصفته الخليفة زعيم المسلمين، من اجل ضمان ولائهم، وهكذا سعى السلطان لاحلال فكرة الجامعة الاسلامية محل الجامعة العثمانية التي نادى بها "مدحت باشا" .

وكان عبد الحميد يرى انه يمكن استخدام فكرة الجامعة الاسلامية كأداة التفاف العالم العربي، بل والعالم الاسلامي حول الخلافة العثمانية، وبذلك تتأكد السيطرة العثمانية على الاقاليم العربية، في وقت كانت الدولة تفقد اقاليمها في البلقان الواحد تلو الاخر كما كان عبد الحميد يهدف الى حانب تدعيم مركزه باخماد اي حركة تقدميه، والى استخدام الجامعة الاسلامية لمقاومة الدول الغربية التي كانت تستغل فرصة ضعف الدوله، لكنها كانت تهاب قوة الاسلام اذ انه بهذه السياسة يجمع حوله الشعوب الاسلامية العربية منها وغير العربية، بما

---

(١) محمد عمارة: مصدر سابق ص (٥٢).

(٢) المصدر نفسة ص(٢٣١-٢٣٧).

فيها تلك الشعوب الخاضعة للدول الاوروبيه، وخاصة العرب في شمال افريقية والخاضعين لفرنسا، ومسلمي الهند الخاضعين لبريطانيا والتتر الخاضعين لروسيا[1].

من اجل الوصول الى هذه الاهداف قام السلطان عبدالحميد الى تحقيق هدفه في قيام الجامعة الاسلامية بعدة اعمال منها:.

- تقريب العلماء المسلمين منه شخصياً، من اجل استخدامهم في الدعاية لدعوته وتصويره بالانسان التقي الورع، وما هدفه سوى مصلحة المسلمين.
- محاولة كسب شريف مكه، ليستغله في مواسم الحج ليرجع الحجاج المسلمون الى بلادهم، وينشروا الافكار الجيدة عن الخلافة راعية الاسلام والمسلمين.
- انشاء المدارس ، والاهتمام بشكل خاص بالكليات العسكرية .
- اتصال السلطان بجمال الدين الافغاني، حيث وجد السلطان التأييد والعون منه، بينما وجد الافغاني من يقظة السلطان وشدة حذره، واعداد العدة اللازمة لابطال مكائد اوروبا وحسن نواياه، واستعدادة للنهوض بالدولة الذي فيه نهضة المسلمين عموماً.

لم يستمر الوئام بين الافغاني والسلطان عبد الحميد، لان الافغاني - من اجل تحقيق امنيته في تجدد العالم الاسلامي كان يسعى للعثور على حاكم مسلم يستطيع عن طريقه تحقيق هذا الهدف السامي ، وهذا ماجعله يتطلع الى السلطان عبدالحميد لمحاولة استخدام نفوذه في سبيل خدمة الاسلام.

ولكن عبد الحميد كان على العكس تراوده الامال في استخدام الافغاني وافكاره عن الجامعة الاسلامية في جمع شتات المسلمين حول عرشه تحقيقاً لمصالحه هو وأسرته[1].

لذلك فان افكار كل منهماكانت تسير في مسار يخالف مسار افكار الآخر، فقد كانت خطة الافغاني تتضمن تحويل الامبراطورية العثمانية الى مملكة الممالك، بتنظيمها على اساس لامركزي حقيقي، واقترح ذلك على عبدالحميد ، الا ان عبد الحميد لم يستجب لأفكار الافغاني

---

(١) (1)Antoniue,ouv cit p 75

(١) د.محمود صالح منسي، حركة اليقظة العربية ص(٧٥).

اللامركزيه. كما كانا غير متفقين حول الناحية الدستورية.

- كما عمل عبدالحميد على احياء عظمة الخلافة الدينية واسترداد هيبتها، واخذ يضفي على حياته الخاصة الكثير من مظاهر التقوى والورع وعمد الى استصراخ المسلمين في كافة انحاء العالم الى نصرته والالتفاف حوله.

اهتم السلطان عبد الحميد بالحج، وذلك بمد الخط الحديد الحجازي بين دمشق والمدينة ومنها الى مكة لتسهيل الحج، ولدوافع سياسية واستراتيجية.

تأييد الدعوة الاسلامية

لقيت الدعوة الاسلامية تأييداً كبيراً بين المسلمين في شتي الاقطار وعلى كافة مستوياتهم الثقافية وقد كان ذلك لعدة اسباب هي:.

- أثر دعوة جمال الدين الافغاني الذي تجول داعياً من افغانستان الى الهند الى مصر، الى الاستانة، واصدار مجلة العروة الوثقى التي كانت توزع على الاقطار الاسلاميه.
- تبني المسلمين حملة الدعوة للجامعة الاسلامية لمقاومة الاستعمار الغربي- المتكالب على السيطرة على الاقطار الاسلاميه، لذلك كان المسلمون يرون ان خلاصهم هو بنجاح قيام الجامعة الاسلاميه، وبالتالي وحدة المسلمين.
- اثر قيام الدعوات الاسلامية المهديه، السنوسية الوهابية التي هدفت الى اصلاح حال المسلمين.
- انتشار التعليم والصحافة التي استعملت لبحث ومعالجة مشكلات العالم الاسلامي.

وهكذا انتشرت فكرة الجامعة الاسلامية. في جميع اجزاء العالم الاسلامي.

الا ان تعلق الناس بالفكرة، اشعر المستعمرين بخطورتها، فتآمرت الدول الاستعمارية للسيطرة واقتسام العالم، الاسلامي ومحاربة اقطاب دعاة الجامعة الاسلامية في مخططاتها المستقبلية التي مازالت تتجدد حتى ايامنا هذه.

حركات الاصلاح الوطنية العربية

ظهرت حركات الاصلاح الوطنية العربية، في شتى اجزاء الوطن العربي بعد فشل التقارب من العثمانيين وفكرة المؤاخاه، والمساواه، وقد تطورت هذه الحركات الى الرغبة في اقامة دولة عربية مستقلة وكان اهم هذه الحركات:

أ- الجمعيات العلمية والادبية :

- الجمعية السورية:

اتفق "ناصيف اليازجي وبطرس البستاني"، خلال السنوات الاولى من نشاطهما العلمي والتربوي على انشاء جمعية علمية في بيروت باسم ""جمعية الاداب والعلوم" والتي تعد من اقدم الجمعيات العلمية في الوطن العربي خلال العصر الحديث، وقد افتتحت ابوابها عام (١٨٤٧) وقد انضم اليها اعضاء من الشباب المسيحيين، ولم يمض عامان على تأسيسها حتى بلغ اعضاؤها خمسين عضواً، وكانت تجتمع مرة كل ا سبوعين يلقي فيها احد اعضائها بحثاً علمياً او سياسياً اودينياً او اجتماعياً واستمرت في العمل خمس سنوات.

وكان سبب الضعف في انتشارها هو اقتصارها على الاعضاء المسيحيين وحدهم، ووجود بعض المبشرين الاميركان فيها ولم يمر وقت طويل على انشائها حتى انفرط عقدها.

- الجمعية العلمية السورية:

انشئت عام(١٨٥٦)[1]، حيث تنادى اليازجي والبستاني، ومعهما عدد من المثقفين المسلمين لتأسيس جمعية عربية، لايكون للمبشرين فيها اي اثر، كان عدد اعضائها في البداية (١٥٠) عضواً من العرب، ومن مختلف الطوائف الدينية.

وكان منهم" محمد ارسلان ، وابراهيم اليازجي"، وبعد حوادث (١٨٦٠)، اعترفت بها الدولة العثمانية عام(١٨٦٨) ، وافسحت المجال للاشتراك فيها حتى ضمت اشخاصاً بارزين كانوا يقطنون خارج بلاد الشام، وخاصة استانبول، ومصر.

كان هدف الجمعية الاساسي: هو تقدم البلاد على اساسين: الوحدة الوطنيه، والاعتزاز

---

(١) محمود صالح المنسي: حركة اليقظة العربية ،ص(٦٧).

بالتراث العربي[1] .هذه الجمعية كانت من بواكير الحركات السياسية التي دعت الى الاستقلال والتخلص من الحكم العثماني الإستبدادي وقد ظهرت من خلال اول صرخة تحريض للعرب على الثورة بقصيدة نظمها "ابراهيم اليازجي":

تنبهوا واستفيقوا ايها العـــــرب	فقد طمى الخطب حتى غاصت الركب
الله اكبر ما هذا المقام فـــــقد	شكاكم المهد واشتاقتكم التـــــرب
فشمروا وانهضوا للامر وابتدروا	من دهركم فرصة ضنت بها الحـــقب
كم تظلمون ولستم تشتكون وكـم	تستغيضوا فلايبد لكم غضـــــب
اقداركم في عيون الترك نازلـــة	وحقكم بين ايدي الترك مغتصــــب
فيا لقومي، وماقومي سوى عرب	ولن يضيع فيها ذلك النــــــسب

- جمعية المقاصد الخيرية

انشئت في دمشق سنة (١٨٧٨م)، وتأسس لها فرع آخر في بيروت، اهتمت بأنشاء المدارس لتعليم اللغة العربية، واهتم اعضاؤها بجمع مخطوطات الكتب العربية وطباعتها ونشرها لاظهار اهمية الحضارة العربية، ومازالت هذة الجمعية قائمة تهتم بالتعليم المجاني لابناء الفقراء، كما انشأت المستشفيات من اجل المعالجة والرعاية الصحية للعائلات المحتاجة.

ب- الجمعيات السياسية :

برزت الجمعيات السياسية بشكل واضح بعد الانقلاب العثماني على الاتحاد والترقي ونتيجة تطبيق الدستور، والحق الذي حصل عليه الناس بتأسيس الجمعيات،، الا ان جمعيات عدة سبقت هذا التاريخ وكانت كلها سرية واهمها .

- جمعية بيروت السرية

في الظروف التي حكم بها السلطان عبدالحميد، وشعور المسيحيين بان الحكومة ليست حكومتهم، مما جعلهم يسعون جاهدين للانفصال عن الدولة العثمانية والحصول على

---

(١) د. ابراهيم خليل مصدر سابق ص (٣٨٧).

الاستقلال. لذلك قام اعضاء من المسيحيين بتأسيس جمعية بيروت السرية عام (١٨٧٥م) [1] ولم يلبث مؤسسوها ان تنبهوا انة لابد من اجل النجاح في تحقيق الاهداف التي يصبون اليها من حصولهم على معونة العرب المسلمين، وصار من الضروري مواجهة الترك بجبهة واحدة لذلك انضم الى الجمعية بعض الاعضاء المسلمين.

كانت الجمعية تقوم بنشر افكارها عن طريق المنشورات التي يلصقونها في الشوارع ليلاً ليقرأها الناس في النهار لذلك شددت الحكومة على اعضائها، فقبض على بعضهم وهرب البعض الآخر الى مصر وكان اهم النقاط التي دعت اليها الجمعية :

١- منح الاستقلال لسورية بالاتحاد مع لبنان.

٢- الاعتراف باللغة العربية لغة رسمية في البلاد.

٣- الغاء الرقابة وكل القيود المفروضة على حرية التعبير ونشر الثقافه.

٤- استخدام الوحدات المجندة من الاقاليم العربية محلياً داخل حدود هذه الاقاليم.

وقد كان تأثير هذه الجمعية محدوداً ومقصوراً على المدن الكبيره، وان الناس لم يكونوا على استعداد بعد لتقبل مثل هذه الافكار الثوريه، وبذلك يعتبر مثل هذا النشاط سابقاً لاوانه لانه كان يتطلب وعياً قومياً متقدماً. وعلى الرغم من ان هذه الحركة لم يكتب لها النجاح، فانها قد حددت الرغبات والاماني التي كانت تجيش في الصدور، وبذلك تعتبر خطوة الى الامام في طريق الحركة القوميه، واول تعبير عن الاهداف السياسية اذ دعت الى فكرة الدولة الوطنية الحديثة المستقلة سياسياً والقائمة على اساس قومي وكان لهذه الجمعية تاثير رئيس في الافكار التي حملتها الجمعيات السرية والعلنية التي اسست فيما بعد.

- رابطة الوطن العربي:

مؤسس هذا الحزب السياسي" نجيب عازوري" وهو مسيحي من جبل لبنان، تولى وكالة متصرفية القدس ثم عزل من وظيفته، بسبب اختلافه مع رئيسه، قام بجولة في مدن الشام، ثم سافرالى باريس ثم عاد الى القاهرة حيث توفي فيها في عام (١٩١٦م). [2] انضم الى حزب

---

(١) محمود صالح منسي: مصدر سابق ،ص (٩١).

(٢)) محمود منسي: مصدر سابق، ص(١٠٠).

رابطة الوطن العربي، بعض الاحرار المثقفين في باريس، وكان هدفها الذي اعلنته، هو تحرير بلاد الشام والعراق من السيطرة العثمانية .

كان تأسيس الحزب عام(١٩٠٤م)، وفي عام (١٩٠٥م) نشر "عازوري" كتاباً بعنوان:"يقظة الامة العربية امام مصالح ومنافسات الدول الاجنبية.تضمن هذا الكتاب افكار "عازوري" مؤسس الرابطة والتي يمكن تلخيصها بمايلي:.

- انفصال الولايات العربية عن الدولة العثمانية وهي آسيا العربية.
- مهاجمة الطائفية التي اعتبرها شراً يهدم الحركة القومية.
- انشاء دولتين:دولة دينية على غرار الفاتيكان على ان تكون دولة اسلامية مستقله، تقوم في الحجاز وتكون عاصمتها مكة يحكمها الخليفه والدولة الثانية دولة عربية علمانية تتمثل في سلطة دستورية تضم سورية ولبنان وفلسطين ويكون رئيسها احد افراد الاسرة الخديويه. واعتقد "عازوري" انه بذلك يرضي جميع الطوائف وقد اصدر "عازوري" مجلة شهرية اسمها" الاستقلال العربي" هدفها تعريف الغرب بالقضية العربية لانه كان يعتقد بان الغرب قادر على مساعدة العرب في سبيل حصولهم على استقلالهم.

الجمعيات التي ذكرنا كانت بدايات للاحزاب والجمعيات التي شكلت فيما بعد والتي كانت مقدمة للاستقلال العربي والثورة العربية ضد الدولة العثمانية والتي كان اهم هدف لها الاستقلال والوحده.

أهم المراجع

أحمد، د. ابراهيم خليل.

- تاريخ الوطن العربي في العهد العثماني ، جامعة الموصل سنة (١٩٧٦) .
- تاريخ الوطن العربي في العصر الحديث والمعاصر ، جامعة الموصل سنة (١٩٨٧ .

أمين ، د. أحمد .

- زعماء الاصلاح في العصر الحديث ، القاهرة المحفضة المصرية سنة (١٩٤٩).

أنطونيوس ، جورج.

- يقظة العرب ، ترجمة د. ناصر الدين الأسد ، بيروت سنة (١٩٦٩).

بروكلمان ، كارل .

- تاريخ الشعوب الاسلامية (مجلد) ترجمة نبيه فارس ، منير البعلبكي ، بيروت ط٢ سنة(١٩٦٥)

جدعان ، د. فهمي .

- أسس التقدم عند مفكري الاسلام في العالم العربي الحديث ، بيروت سنة(١٩٧٩).

الجندي ، انور .

- يقظة الفكر العربي والدولة العثمانية ، بيروت سنة(١٩٧٩).

حتي، فيليب .

- تاريخ العرب المطول ، بيروت ط٣، سنة (١٩٦١).
- تاريخ لبنان وسوريا وفلسطين ، بيروت ،سنة (١٩٥٩) .
- خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الأدنى ، بيروت سنة(١٩٨٢).

حسون ، د. علي.

- تاريخ الدولة العثمانية ،بيروت ،ط٢، سنة(١٩٨٢).

الحصري ، ساطع.

- البلاد العربية والدولة العثمانية ، القاهرة سنة (١٩٥٧).
- الفكر العربي في عصر النهضة ، بيروت سنة (١٩٧٧) .

حوراني، البرت .

الفكر العربي ، بيروت سنة (١٩٧٧).

جب.

- الاتجاهات الحديثة في الاسلام ، ترجمة:قاسم الحسيني ، بيروت، سنة (١٩٦٦).

الدباغ، مصطفى مراد.

- القبائل العربية وسلالتها في بلادنا فلسطين ،بيروت ،سنة (١٩٧٩).

- بلادنا فلسطين ،جـ١ ، قسم٢ بيروت ،سنة (١٩٧٤).

داغر ، اسعد.

- ثورة العرب ، بيروت.

دروزه ، عزة.

تركيا الحديثة ، بيروت ،سنة(١٩٤٦).

رافق، د.عبد الكريم .

- بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني إلى حملة نابليون، جامعة دمشق سنة(١٩٦٧).

- العرب والعثمانيون ،جامعة دمشق ، سنة(١٩٨٢).

الرافعي ، عبد الرحمن

- جمال الدين الأفغاني ، القاهرة سنة (١٩٦٧).

سويد ، د.ياسين.

- التاريخ العسكري للمقاطعات اللبنانية في عهد الامارتين ، بيروت سنة(١٩٨٥).

شلبي، د. أحمد .

- التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية ، جـ٥ ،القاهرة ، سنة (١٩٦٧).

عازوري ، نجيب .

- يقظة الأمة العربية (ترجمة:محمد أبو ملحم) ، بيروت سنة(١٩٧٨).

عبد العزيز، د.عمر.

- محاضرات في تاريخ الشعوب الاسلامية ،بيروت ،سنة(١٩٧٦).

المحتويات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

- الفصل الثالث

الموضوع	الصفحة







